وَحْدَها لا تَمُوتُ

سعد جرجيس سعيد

الكتاب: وحدها لا تموت
المؤلف: سعد جرجيس سعيد

رقم الإيداع: ١٩٤٣١ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-961-7
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

وَحْدَها لا تَمُوتُ

رواية

سعد جرجيس سعيد

الإهـداء

إلَى ذَلِكَ الطِّفْلِ النَّحيلِ...

الَّذِي تَرَكْتُهُ ذَاتَ صَيفٍ يَقْرَأُ أمواجَ دجلةَ

سعد

شتاء الشرقاط

٢٠١٨

النهرُ القديمُ

من بعيدٍ عائدٌ، من صَوبِ ذلكَ المكانِ الذي لا اسمَ ولا طعمَ له، حمَّلتني الأماكنُ البعيدةُ كثيرًا من الظَّمأ وأرْسلتني، وقالتْ كلامًا كثيرًا لم أفهمْ منه شيئًا، وبعثَتْنِي إليكِ، أمشي والنوارسُ والضِّفافُ والموجُ والعبقُ والسلامُ كلُّها تدعونَنِي إلى صفائك، لم تكن الطُّرقُ كلُّها تؤدي إلى رملك النديّ.

إليكِ أمشِي...

وأدرِي أنَّ الحياةَ لا تُشكِّلُها لغَةٌ واحدةٌ، ولا يُؤلِّفُها مَنطِقٌ واحدٌ، والأنهارُ تظلُّ أجمَلَ لغاتِ الحياةِ، وأعذبَ صوتٍ يُسافِرُ في صَحَائِفِ الوُجُود، الأنهارُ رحلةٌ من الأُنْسِ، وحديثٌ عائِدٌ من الزَّمَنِ القديمِ، الأنهارُ لا نهايَةَ لغرامها، ولا انطفاءَ لألَقها، الأنهارُ كلامٌ خفيٌّ لا يفْقَهُهُ إلا من فتَحَ قلبَه لحديثِ النَّهْرِ، الأنهارُ ليستْ ماءً يجري، ولا ضفتين تنتصبانِ، الأنهارُ أمكنةٌ تشدُّ وثاقَ الحُبِّ بين الماءِ والأرواحِ.

المكانُ هو المكانُ، لكنَّ الأمكِنَةَ تظلُّ ترتَدِي رداءَ الزَّمَنِ، لستُ أدْرِي: هل الأمكِنَةُ غادَرَتْ طفولَتَها أم نحنُ الذين غادَرْنا طفولَتَنا فلم نَعدْ نبصرها في دهشتها الأولى؟

هذه دِجْلَة مرَّةً أخرى، هذا ماؤُها القديمُ يا صحراءَ العُمرِ، هذا نسيمُها الهادئُ يا كُلَّ اختناقٍ يُطاردني، هذه طيورُها أيتها الآفاقُ التي تريدُنا ان نظلَّ بلا طيورٍ.

هذا المكانُ مكاني، وهذا الغناء الذي أودعتُه لدى الجُرف ما زال نابضًا بالحنين.

أيُّها النَّهرُ الذي يُعمِّد حكاياتِ الدمِ بالسلام، دجْلَة أيها النهرُ الذي يكتَشِفُ كلَّ فجرٍ ألَقَ القُرَى، ويَحْمي أماكِنَ الريف من صحراءِ الحياة الجَامحة، أيُّها النهرُ الذي يكتُبُ حكايتَه بنفسِهِ، ويقرأُ أيامَه ولياليَه كيفما يشاءُ.

ما أروعَ أن تعودَ إلى نهرِك القديمِ وأنت مسكونٌ بالظمأ، ظمأِ السفر، ظمأِ الغربة، ظمأِ الحياة، ظمأِ المُدُن المزدحمة التي لا ترحَم، ظمأِ تجارِبِ الحب التي لا تكتمل، ما أروع أن تعودَ إلى نهرك القديم فتجدَه مبتسمًا كما تركتَه، وأنت قد نزَفْت عمرًا من الدُّموع على مفارق المُدُن الغريبة، تتشظَّى الروحُ على دروب الزمن فتجمعها موجةٌ عائدة إلى الشاطئ، يبتعد العمر كثيرًا عن براءَته الأُولى فيُرجعُه شروقٌ جديدٌ من النهر القديم.

كيسٌ مغلقٌ، وسكينٌ صدئةٌ

هذا المكانُ مكاني، أعرفُه جيدًا، قرأتُ عروقَه منذُ كنتُ طفلاً، وقد لمَس ترابُ الصيف حينها جسدي النَّحيل...

كُنتُ في السابعة من العمر، أعرف عن الحياة أكثر مما أعرف عن الموت، دجْلَة الصيفِ وشاطئُها يغيِّر هيأَتَه كلَّ حينٍ، الضُّحى يمنحُ النهر صفاءً آخرَ، فتبدو الأشياءُ واضحة عليه، الشمس تمنح ماءَ دجْلَة كثيرًا من الضياء، وكأنَّ الشمسَ للنهر وحدَه، من ذلك الصفاء يظهر جسمٌ أسودُ يدفَعُهُ الموجُ إلى الشاطئ شيئًا فشيئًا، حتى استقرَّ على الحصى...

كنتُ أعملُ في الحقل المجاور للنهر، رسا ذلك الشيءُ على الشاطئ، على مرأى من فضولي، الذي دفَعَنِي إلى الذهاب إليه، فصرتُ أنزلُ الجرفَ وكأنَّني أنزِلُ إلى هاويةٍ سحيقةٍ، على الرغم من أنه جُرفُ طُفُولتي، بين كلِّ خطوةٍ تقرِّبني إليه والأخرى مسافةٌ بعيدةٌ بعيدةٌ، وكلُّ خطوة أتقدَّم بها إليهِ تكون أكثرَ خوفًا من سابِقَتِها، الرَّمْلُ وحجر الشاطئ بشكلٍ غريبٍ يحتضنانِ قدميَّ الصغيرتين الحافِيَتينِ.

وصلتُ إليه، كان كيسًا أسودَ من النايلون، مشدودًا بإحكامٍ من فمِه، بفضول طفلٍ يريد أن يَرى، وببراءة طفل يعيش في زمن صافٍ تُجْفِله الأشياء المغلقة، ولكنَّه يُصرُّ على رؤيتها، أخذتُه وبصعوبةٍ حملتُه إلى أعلى الجُرف...

وحدي أمام كيسٍ نايلوني سميكٍ، كيسٌ مغلقٌ وطفلٌ مولعٌ بمَهمة اكتشاف الأشياء، تناولت سكينًا صدئة ورُحْتُ أمزقّه بشراسةٍ، عدْتُ خطىً إلى الوراء أكثر خوفًا، ملابسُ عسكريةٌ مرقطةٌ عليها دماءٌ، الخوفُ يجعل الإنسانَ لا يقف على الحياد، ومرارةُ التَّجرِبة تجبرك على ألا تنزوي في منتصف الطريق، أكملْتُ تمزيقه وحدي، وكأنَّني أُهاجم بشراسةٍ فريسةً ما بسكين صدئة، فأحاول على عَجَلٍ أن أُجْهز عليها...

قلَّبتُ أشياءَه، فرُحتُ أُدخل يَدِي الصَّغيرةَ الراجفةَ في أكمامِ تلك الملابس الملطَّخة بالدماء، وأجْعَلُها تَتَسلَّل بحذرٍ خائفٍ في تفاصيلِها جميعًا.

وجدتُ قنينةَ عطرٍ لم تكن فارغةً، ووجدتُ ورقتين مع مرور الزمن أدركتُ أن الأولى أمرٌ بإعدامه، والثانيةَ رسالةٌ منه إلى أُمِّه، لم تكن تلك البدلةُ ممزقَةً بالرَّصاص، وإنَّما كانت ملطَّخةً بالدِّماء، فهذا يعني أنه أُعدم رمْيًا بالرصاص في رأسه.

لم تكُن لديَّ القدرةُ الكافيةُ على تفسيرِ الأشياء جميعِها، كنتُ أستطيعُ القراءةَ والحِفْظَ، خصوصًا تلك المواقفَ

الخالدةَ التي لا تمضي حتى تستقرَّ في الذاكرة، فادركتُ مع مرور الزمن من خلال حروفه أنَّه لم يكن متزوجًا، وأنَّه أُعدم إعدامًا، وأن زجاجة العطر التي في جيبه هي هديةٌ من ابنة خاله إليه، وأنه أراد أن يُعيدَها إليها ليبقى العطرُ وثاقًا يربط بينَهما.

أعدتُ الورقتين إلى مكانِهما، وجمعتُ الأشياءَ لألقيَها في النهر ثانيةً بكيسِها المُمَزَّق، لأعيدَها إلى النهر مرَّةً أُخرى.

بسرعَةٍ تلقَّفَها الماءُ الجاري من يدي، عدتُ إلى مكاني هذا الذي أجلس فيه اليوم بعد أكثرَ من ثلاثينَ سنةً ومعي رائحةُ الدم المتجمِّد.

لن أُسامح نفسي لأنني تسلَّلْتُ إلى أسرار الميِّتين...

لن تشفع لي طُفولتي... لماذا نَبَشْتُ أسرار ذلك المسافِرِ بعد أن نبش القاتلون رأسه بالرَّصاص...

ماءُ دجْلَة كان أكثَرَ طُهْرًا مني، فقد حمل تلك الأسرار دون أن يتسلَّل إليها، تركَها في كِيْسها المُغْلق وسافر بها.

لمَّا ألقيتُ الكيس الممزَّقَ في النهر مرةً أُخرى؛ لم أكن أدري هل كان النهر غاضبًا مني لأنَّني أجبرتُه على مُلامسة الدماء، وعلى محْو حروفٍ أراد كاتبُها أن تبقى خالدةً، لأنها حروفُ النهاية، حروفُ الوداع الأخير، لأنها آخرُ كلماتِ القلب قبلَ سُكُوته الأخير، أم كان الماءُ مبتهجًا وهو يغسلُ الدماء عن تلك البدلة العسكرية التي لم يصبها خرقٌ ما،

لعلَّه يمنحُها شيئًا من الحياة؟

بلا شك هو قُتِلَ بالرصاص في رأسه، فسكت قلبُه دون أن تمسَّه رصاصةٌ ما، لأن الحُبَّ كان إرادةً كبرى في القلب دفعت عنه الرصاص، فالحبُّ يسكُنُ في قُلُوب الناس لا في رؤوسِهم.

يا أيها الذينَ قَتَلتموه، دون أنْ أهتَدِيَ لسببِ القَتْل، ودونَ أنْ أدريَ للآن إن كانَ مستحقًّا للموتِ أم لا، لماذا أصرَرْتم إلا أن تجعلوا دجْلَة شريكةً لكم في القتل؟ ما شأنُها برَصاصٍ يختَرِقُ رؤوسَ الناس؟!

دجْلَة للسَّفَرِ...

دجْلَة للحُبِّ...

دجْلَة للغِنَاء...

دجْلَة لسفر القوارب التي تفيضُ غناءً يردِّدُه الماء...

لا لسفر بقايَا الأمواتِ.

أول الغرقى

أيها النهر الذي أدمنتُ أن أُطالِع صحائفه منذ الطفولة، وأتْرُك النَّظَر يرحَلُ مع تقلباتِه جميعًا، أيها الراحلُ صوب أبديته، أيها الدائمُ السعي لأجْلِ أن تظلَّ أماكنُه ناضِرَةً، صفْحةُ النهر مثلما كانت تُرْسِلُ الجمالَ فعليها أن تدفعَ الضريبة وحدَها، فتحتَمِلُ البرْدَ، وترتجف تحت الريح، وتحت صفعاتِ الحَمْقى من الصيَّادين الذين لا يُحْسِنون التجديفَ.

في موسمٍ من مواسم الصيف، والنهر شاحبٌ من الضفتين، وماءُ النهر يبدو ساكنًا في أغلب أماكنه يُغْري بالدُّخول إليه، لم يكن يعي غَضَب النهر، ولم يدرِ أن قيامتَه تكمُنُ في ذلك الماء، ألقى بجسده النحيل في لُجَّة دجْلَة، ليُذْهبَ عنه حَرَّ الصيف، ولِيهرُبَ قليلا من تعب شياهِهِ التي أعياه رعيُها، لم يكن أحدٌ معه إلا نعاجُه، أرسل جسده إلى الماء.

طفلٌ صغيرٌ في العاشرة من العمر، لا يُدْرك أسرارَ الماء بعدُ، ولا يقوى على صراع تيَّار النَّهْر، أخذه الماءُ بعيدًا عن نقطة انطلاقه، كان يعرف بعضَ مهارات السباحة، لكنَّها لا

تُسعفه أمام نهرٍ بكامل شُمُوخه وجَرَيانه، ربما استطاع أن يَنْفَذَ من موجةٍ أو موجتين، لكنَّ الأمواجَ الأُخْرى كانت أسرعَ إليه، فسافَرَ وحدَه في الماء.

كنتُ حينها في العاشرة من العمر كذلك، دون وعيٍ مني نزلتُ إلى الشاطئ لعلِّي أفعلُ شيئًا، لعلي أستطيعُ أنْ أستلَّه من بين يدي الموج، لكنَّه ابْتعَدَ عن الشاطئ، أشارَ إليَّ بيدِه ومضى، كنتُ آخِرَ من أبصرَ بقايا رُوحِه، والماءُ يسعى لانْتزاعِها منهُ، هل أشارَ إلي مُوَدِّعا أم مُسْتنجِدًا، وهل يستطيعُ الغريقُ وهو في وجع اللحظة أن يعيَ جزءًا من تفاصيل الأرض أو الفَضَاء حولَه، أظنُّه حينَها آمَنَ بالموت، ورَضِي بالماء صاحِبًا في السفر الأخير، بَحَثَ الناس عنه كثيرًا كثيرًا في المكان، وجلبوا أكثر من غوَّاص، لكن الماءَ أصرَّ إلا أن يسافر به بعيدًا، وجدوه على شاطئ قريةٍ تبعُدُ أكثرَ من خمسةَ عشرَ كيلو مترًا، كان الصيف قاسيًا، اجتمع الناس للبحث عنه، لكنَّه فاجَأَهم بالخروج في مكانٍ بعيدٍ عن اجتماعهم، حينَها سمعتُ أحد كبار السن يلعَنُ ذلك الطفلَ الذي عذَّبهم بموتِه، وسمعتُ آخَرَ يلعنُ دجْلَة التي لا ترتاحُ حتَّى تأخُذَ غريقًا كلَّ عامٍ، وكأنَّهُ طقسٌ من طُقُوس الفِدَاء القَديم.

حينها وقفتُ أمام نهرٍ ساكنٍ على جُثَّة غريقٍ، وشياهٍ امتنعت عن شُرْب الماء بعد أنْ سافرَ صاحبُها، لم أسمعْ طَوال حياتي الريفيةِ كلِّها ثُغاءً حزينًا للأغنام كذاك الذي

سمعتُه آنذاك، فأدركتُ ان الأغنام أكثَرُ شفقةً، وأنقى إحساسًا من ذلك الشيخ الذي لَعَن الغريقَ لأنَّه كلَّفه وقوفًا قليلاً على الشاطئ.

لم أكُن خائفًا حينَما نزلتُ إلى الشاطئ لأُنْقِذَ الغريقَ، مثل نزولي لأجلبَ كيسَ النايلون الذي رسا على الشاطئ نفسِه قبلَ ثلاثِ سنواتٍ، على الرغم من أنَّ الغريقَ كان في منتصف النهر، وليس راسيًا على رمالِهِ الذَّهبيَّة، فلو اجتمع عُمْرانا لصارا عشرين سنة، وليس كثيرًا على تلك اللُّجةِ الزرقاءِ إسكاتَ قلبينِ وعشرينَ سنَةً.

منذ ذلك الحين أدركتُ شيئًا من أسرار النَّهْر، أدركتُ أنَّ النهْرَ بامتداده الطويل ليس نهرًا واحدًا، فهناك نهرٌ للحياة، ونهرٌ للموت، نهرٌ لصيد السمك، ونهرٌ للسقي، ونهرٌ للغناء، ونهرٌ للسباحة، نهرٌ لاستقبال شفَقِ الغُروب، ونهرٌ لحديث الطُّيور، ونهرٌ للخوف، ونهرٌ للمجهول ونهرٌ للسفر، ونهرٌ للسلام، ونهرٌ للرُّعْب...

لا تلعَنُوا دجْلَة، إنها نهرٌ عظيمٌ لا يُمْكن أن نسمِّيَه نهرَ الموت، حتى تلك المساحة منها التي استلَّت ذلك الطفلَ لم تكن مذنبةً، لأنَّهُ بجسدٍ صغيرٍ أرادَ ان يُقاوِمَ أمْواجًا عظيمةً، لأنَّه أرادَ أن يصل إلى الأعماق الباردة، فكان له ما أراد، دجْلَة يُوجِعُهُ كلامُ الناس ولا يقتُلُه، وتُؤذيه شتائِمُ الحَمْقى، لكنَّه يعودُ إلى بهائه كُلَّما مرَّت به أحلامُ الرُّعاة.

عِنَادُ المَجَانين

أيها الشاهِدُ على الزمن، يمرُّ العابرون وأنت مقيمٌ في مكانك المجيد، يغيبُ الناس وأنْتَ تُعْلنُ أن الحياة ما زالت باقيةً، كم من يدٍ كريمةٍ امتدت إليك، وكم من يدٍ تُلوِّثُ بلدًا كاملاً انغمست فيك ولم تسلبْكَ طُهرَك.

أشجارُ الغرب قريبةٌ جدًا من الشاطئ، دانيةٌ من الماء، تكادَ أغصانُها تُلامسُه، في سكون الظهيرة، والقيظُ ينشُر درجاتِه الخمسين، ودجْلَة بما يمتلِكُ من نسيمٍ لا يستطيع دفع الحَرِّ عن الأماكن، كان القيظ قاسيًا أكثر من أي وقت من أوقات السنة، وأنَا في سيباطٍ من الغَرَب، يمنحنُي ظلاً وهواءً قادمًا من بين أوراقها وأغصانها الناضرة، أنظُر إلى المكان الفسيح.

المكانُ ساكنٌ في ظهيرة موحشةٍ، تحرَّكتْ إحدى أشجارُ الغرب، لم يكن ذلك الامْرُ يثير استغرابًا كثيرًا، وإنما يدعو لشيء من الفُضُول، فازدادت حركةُ تلك الشجرة، وازداد معها فضولي، أمعنتُ النَّظَرَ، فبدا لي أن شخصًا ما تحتها، نسيتُ الجهاتِ جميعًا وظَلَلْتُ أنظر إلى الشجرة، خرجتُ من سيباطي الظليل، لأستقبلَ بجسدي الصغير درجات

الحرارة الخمسين، كانت أشجار الغَرَب تابعةً لأرضنا، اقتربتُ مِنْها والخوفُ يتملَّكُني، ناديتُ بصوت مرتفعٍ:

– مَنْ هُنا؟

– مَنْ هُنا.

فمن بين الأشجارِ دونما كلامٍ أو إجابة على ندائي الخائف خرجتْ طفلةٌ رثَّةُ المَلابس تبدُو عليها آثارُ التعب، لا يتجاوز عمرُها سبعَ سنين.

– ابنةُ مَنْ أنتِ؟

– أنَا هداوة.

– وماذا تفعلين هُنا؟

– أُرَاقب أخي.

– أخوكِ؟

– نعم.

– وأينَ هُوَ اخوك؟

فأشارتْ إلى شجرةِ الغَرب.

وهي ما زالتْ تُكَلِّمُنِي، خرجَ من بين الأشجارِ خرابٌ المَجْنون.

– ها ها أنتِ بنتُ الحَسَن، أخت خَراب.

– نعم أنا أختُه.

– وما الذي أخرجَهُ في هذه الظهيرة؟

– خراب يخرُج متى يُريد، وقد كلَّفَنِي أهلي بمَهَمَّة مراقَبَتِه، وتوعَّدوني إن حدَثَ له مكروهٌ.

– خراب، ارجعْ للبيت، وارحمْ هذه الطفلة.

– لا لا، أريدْ أشوفْ العَصافير.

– خراب، العصافير تنام الظهر، ارجع ونمْ مثلَها، تعالَ عصرا، فالعصافير كلها تأتي إلى الغرب.

– لا لا العصافير ما تنامْ الظهر.

– خراب، ارجعْ للبيت، الغرَب فيه حيةٌ كبيرةٌ.

– لا لا الحيَّة تنام الظهر.

– خراب تعال استرحْ في السيباط.

– لا لا، من قال لك إنني تعبتُ.

– خراب، الله يأخذْ روحك ويخلصْ هذه الطفلة منك.

– لا لا، الله ما يأخذ روحي.

– خراب، هذه الطفلة ستموت من الحر والتعب.

– لا لا ما تموت، ما عليك، هذه أختي.

أنظر إلى الطفلة التي أصبحت جسدًا من الشقاء، لأجل ان يتنعم خراب، قلتُ لها:

– اتركي خرابًا لوحدِه، واذهبي للبيت.

– (خَطيَّة) أخافُ عليه من الكلاب، وفي الغَرَب حيَّةٌ كبيرةٌ، ووالدي لا يرضى أن أعود إلى البيت إلا مع خراب.

– حسنًا، ماذا لو أصرَّ خراب أن يظل طَوال النهار هنا، هل ستظلين معه؟

لم تكن بعمرها الصغير تستطيع أن تجيب عن أسئلتي، فنظرتُ إلى وجهها الصغير وإذا بدمعة كبيرة تسافر عليه، وقد أتعبه الحر والجوع، والسعي وراء مجنون لا يعي عذاب الآخرين.

أرجعُ مرة أخرى إلى سيباطي الظليل، أُلْغي الجهاتِ جميعًا، لأتَّجِهَ صوبَ أشجار الغرب، فيخرُج منها خرابٌ بدشداشته الممزقة وظهرِه الأحدبِ، يركض صوبَ النَّهْر، فتتبعه (هداوة)، بخطواتِها الصغيرة العاثرة، أسمعها تصرُخُ عليه:

– تعال، لا تغرق.

– لا لا ما أغرق، أريد أشوف السمك.

خراب يكلِّفها سعيًا وتعبًا وراء جنونه، وراء كل غاية ترجوها لذَّتُه المجنونةُ, ظهرُه الأحدبُ لا يمنعُه من السير سريعًا، فتظل وراءَه، طفلةٌ جميلةٌ يقودُها مجنون، لا خيار لها إلا أن تتبع خطاه، هل يا ترى تنطفئ من مخيلتها الصغيرةِ روعةُ الشواطئ وجمال التِماعِ السمك، وتغيبُ عنها أصواتُ العصافير، ولا ترى أيَّ جمالٍ في ظِلالِ الغرب الذي تحرِّكه الرياح، فتنتفي من عينيها وظائف الأشياء، فلا تفكِّر إلا كيف تحفظ هذا المجنونَ من الهلاك، مجنون يرسُم

لها الطريق، يضحك يضحك وهو يركض على الشاطئ، والطفلة تسقط على الطين كل حين.

يبتعدان كثيرًا عن سيباطي الظليل، فتبدو لي الطفلةُ نقطةً حمراءَ بعيدةً، يكادُ يخفيها التماع النهر، وخراب يبدو أكثر وضوحًا منها، أراه من بعيد جَسَدًا مُتحركًا.

خراب أيها الكائن الذي لا يرضى أن يظلَّ منزويًا عند جنونه، فيأبى إلا أن يُقْحِمَ طفلةً نديةَ العُمْر في معترك الجنون.

يقولون: إن المجانين طيِّبون، وإنَّهم يتألمون لأحزان الناس، فيا أيُّها الخرابُ من أين تسلَّل إليك هذا اللؤم الكبير، يا أيُّها الخراب اتركْ للنهر جمالَه، واتركْ للشواطئ روعَتَها... أم هو النهر يُغْري المجانين بالدخول في روعته، أيها النهر الشاهِدُ كن رحيمًا بخطى طفلةٍ يعذِّبها مجنونٌ، طفلة لا خيارَ لها إلا أن تتَّبع خُطَى مجنون يقودُها إلى حيثُ يشاءُ.

إنَّهُم يَدْخُلُونَ المَدينة

يمضي العمرُ نحو قيامته، الأيامُ سرابٌ تأخذُه مراكِبُ الزمن، في لُجَّة العمر نبحثُ عن لآلئِ الذكريات، أخذتْنا مراكبُ الزمن كثيرًا، ابتعدْنَا عن شواطئِنَا الأُوْلى، ثم عُدْنا إليها محمَّلين بأسئلة المدن المتحجِّرَة، ألقتْ بينَنَا وبين الساحل الأول كثيرًا من الدروب التي ليس بمقدورِنا اجتيازُها، أسئلةُ الأيام ما زالتْ شاخصةً أمامَنا.

يمضي العمرُ... وبين نقطة انطلاقنا ووقوفنا في هذه الزاوية من الزمن أشياءُ لم نعدْ قادرين على تفسيرِها...

حكايةُ الذي بَقِي...

وأحاديثُ الذين مرَّوا من هنا...

وأسئلةُ الذين أعياهم الهروبُ من منافيهم...

أكادُ أجزمُ أنَّ المجْدَ القائِمَ ليسَ للذين يستحقون المَجْدَ، إذا كان الصدى نفسُه يخونُ الصوتَ، وإذا كانت العصافيرُ أنفسُها تهادِنُ أشجارَ الغَرَب لموسمٍ معينٍ من مواسم السنة، فإنَّني أشك في هذه اليابسة جميعًا.

صورٌ وأشكالٌ شتَّى من أحذية البشر تترك وُجودَها على هذه الأرض، إنَّهم لا يتركون الأرض لهدوئها، يُفزعونها كلَّ حين، سَعْيُهم العابث على مناكبها يُحْزنها كثيرًا.

خراب المجنون ليس وحدَه مَنْ يجوبُ الأرضَ دوْنَ وعيٍ. هل ظلمْتُه ذات يوم حين دعوتُ عليه بالموت، كل الذي اقترفه أنه في سكون الظهيرة خرَج يبحث عن أصوات العصافير، ودهشةِ الأسماك الصغيرة وهي تُنقِّر كلَّ قدم تثبُتُ لحظةً ما في مياه الشاطئ.

هل الذين ظلُّوا على ظهرها أكثر من الذين احتواهم جوفُها، هل الذين يتنسَّمون هواءَها أكثر من الذين فتَحتْ عليهم أبوابَ سعيرها المُظْلم.

النهرُ مَلاذٌ للحياة؛ لأنَّهُ يُعيد ترميْمَ نفسِه بنفسِهِ، تمرُّ زوارِقُ العابرين، تشقُّ ماءَ دجْلَة، تحفِرُ أخاديْدَ وسْطَ الماء، ثم في لحظةٍ من عمر الماء، يعودُ إلى جمالِه الأوَّل، فتتعانقُ الأمواجُ من جديدٍ، ويدخُلُ الماءُ في أشواق الماءِ تارةً أخرى.

يقف العمر على مشارف الأربعين، يقترب من أشُدِّه، وتظلُّ الروحُ تهفو إلى شهقتها الأولى، والنهرُ يشدُّ وثاق أوَّل العمر بآخره، يرفُضُ أن يترُكَ الحكايَةَ في منتصف الطريق، يرفضُ أن يسيرَ بين جرفيه دونَ أن يستَمِعَ لكل نداءات العاشقين والحالمين والبائسين واليائسين والحَيَارى.

يقفُ العمر على مشارف الأربعين... لأرى مساحاتٍ ممتدةً من الأيام الذاهبة، لأرى تفاصيلَ الخُطى الباقية على ملامحِ الدروب، وأخرى لا أكاد أتبين ملامِحَها.

يقف العمرُ على مشارِفِ الأربعين فتغزوه المحنةُ الكُبْرى: (إنَّهم يدخلون المدينة) وهم تجربة مرة لا يعرِفُها إلا من عاش تفاصيلَها، يدخلون المدينَةَ من جهاتِهَا جميعًا، يقطعون كلَّ وريدٍ للحياة فيها، فتنهمِرُ الأسئلَةُ من الآفاق والشرفات والأشجار والحمائم والمآذن.

يا نهرَ الطفولة... يا سلام العمر... يا قلبَ المدينة النابض... لم أعهَدْه ساكتًا قبل هذا اليوم، أذْكُرُ تفاصيل اليوم خفقَةً خفقةً، وحزنًا حزنًا، وغيظًا غيظًا، في حزيران دخلوا المدينةَ بعدَما اجتاحوا مدينة الموصل بكامل ربيعيها، وعبثوا بتاريخها القديم، ونسفوا حاضرَها القائم، حينَها هُرِعْتُ إلى دجْلَة، عانقتُه عانقتُه بشوق عظيم، فأدركت أنه لا يريد عناق أحدٍ، دخلتُ إلى أعماقه الباردة، فعرفتُ أنه لا رغبةَ له بأخذ أحدٍ، همستُ بأعماقِهِ الباردة، عن ذكرى غلامٍ أخذَهُ ذات صيف، أخبرتُه بأنَّنِي كنتُ شاهدًا على السفر، فلم يستجب لي.

حين تكتسي الأمكنةُ بالرُّعب، ويكونُ الحزنُ سيِّدَ المكان لا ينازِعُه شيءٌ سواه، تنتفي وظائِفُ الأشياء...

تحت ريحِ حزيرانَ اللاهبة كان ماءُ دجْلَة يرتجفُ، يرتجف غيظًا لا بردًا ولا رعبًا، كانت أمواجُه ترفُضُ أنْ تُلامس حَصى الشطآن بشوقها القديم، لأوَّل مرة في العمر أرى حصاها يشعُرُ بالجَفَاف، جنودُهم على الشاطئين، يكتمُ أصواتَه كلَّها حتى لا يدخُلَ أسماعَهم شيءٌ من ذلك الصوتِ الخاشع، يرفض أن يبتلعَهم خوفًا على طُهْره، راياتُهم السودُ قائمةٌ على بياضِه، وأكفُّهم المجرمةُ الحاقدةُ تمسُّ براءَتَه.

- إنَّهم يدخُلُون المدينَةَ.

- اهدأْ إسماعيل أرجوك.

- كيف أهدأ، لقد احتلوا القرى المجاورةَ كلَّها.

- إسماعيل، اهدأ، أرجوكَ، ستموت.

- ما العمل، إنَّهم احتلُّونا، وتعرفُ إجرامَهم طَوال السنين الماضية، صدِّقني سينتقمون من الناس جميعًا، الناسُ كلُّهم في خطر.

أُحَاول أنْ أُذهب ألَمَه وأنا أكثرُ ألمًا منهُ، ولكنْ عندي في تلك اللحظة قدرةٌ عجيبة على إخفاء الألم، أمَّا هو فقد نَفِدَ رصيدُه من الصَّبْر.

الأحداث في ذلك اليوم تتوالى بسرعة عجيبة، والمواقف تترك دهشتها في الروح ولا تذهبُ، لم يكونوا غريبين عن مسرح الأحداث الماضية، فآثارُهم الوحشيةُ ما زالت قائمةً في المكان، مضت ظهيرة ذلك اليوم من حزيران، وانتهى

معها كلُّ شيء، فأصبحت السلطةُ بأيديهم، امتلكوا المكان كله، أخذوا يُحْرقون ما يشاؤون.

الشاطئ أجملُ هروبٍ من جحيم الأحداث، بقينا للحظات صامِتَين، نطالع صفاءَ النهر، إسماعيلُ مرَّة تغزوه ثورةٌ عارمةٌ، ومرة يغمُرُه هدوءٌ قاتلٌ، وانكسارٌ مُرٌّ، بتثاقل يُلقي كلَّ حينٍ حصاةً في الماء، وكأنَّه لا يريد أن يُفْزِعَ خشوع النهر، والماء يستقبل كل حصاة بلهفة جديدة، يريد أن يجسَّ أسرار الأرض، يريد أن يكتشف مقدار الرعب الذي حلَّ بها.

- أيمن، هل تعلم أن دجْلَة رآهم قبلَنا، أكادُ أجسُّ غَضَبَه لأنَّهم لمسوه على بُعد مئات الكيلومترات من هنا، تُرى ما كان شعورُه حين صار جانباه كلاهما في قبضتهم، مَنْ قال إن الأنهار لا تعي أحزانَ الأرض، ومن قال إن الأنهارَ للرحيل المُطْلَق، فلا تتوقَّفُ لتشهَدَ حرائقَ الأرض، تذكُر أنَّكَ قلتَ لي ذات يوم: عليكَ أن تصْرُخَ على قدَر الوجع، لا تزدْ عليه ولا تُنقِصْ منه شيئا، فكم من الصُّراخ نحتاج اليوم!

- أقرأُ إسماعيل بسرعة، أدركُ أنهُ يشعر أنني أسعى لأهوِّن المصيبة، فعلى الرغم من أنَّني كنتُ أدرك حجمَها، لكنَّني أشفقتُ عليه، أعترف أنهُ أكثر ذكاءً مني، لأنَّه أفرغ شيئًا من شُحْنة الغيظ التي كادت تخنقُه لمَّا شتم كثيرًا، وسبَّ كثيرًا.

وقفَ إسماعيل أمام النهر وهو يَثِقُ أنه بمائه وأسماكِه وأشجارِه حجارَتِه جمهورُه الذي يُصغي لكلِّ كلامه، وأخذ يشتم، فعلى الرغم من كل غاشية العذاب، وعلى الرغم من أحزان ذلك العصر كلها، يستلُّ الضحكة من بين ركام المواجع.

- اسماعيل (خَطيَّة) هذا جدَّتُه ميِّتَةٌ، اشتمْ أمَّهُ فقط.

- لا لا، لأن جدَّتَه احتضنَتْه ذات يوم وهو طفلٌ، وقالت له: الله يخليك وينصرك.

- إسماعيل، اصعَدْ قليلاً، فشتائِمُك كلُّها تحتَ السُّرَّة!

- أبدا لن أتوقف، دعْ نساءَهم يتلذَّذْنَ في يومِ انتصارِهم.

انتزعتُه من الشاطئ وكأنَّنِي أنتزعُ طفلاً من حِضْن أُمِّه.

تركنا الشاطئ لسكوته، وتركنا النهر لسَفَرِه، وكان مثلنا يرغب أن نظل في ذلك المكان، إنه يشعر بالوحدة، يشعُر بالاختناق، يشعر أن أحبابَه لن يعودوا إليه، فأمدَّتْه زيارَتُنا له بشيء من الحياة.

الأنهار لها أعصابٌ مثل البشر، ولها ذاكرةٌ مثلَ الناس، إذا كانتِ الأسماكُ بلا ذاكرةٍ فإنَّ ذاكرة النهر لا تختفي، وإذا كانت الأحياء التي تسكُنُ فيه تتنفَّس تحت الماء، فإن النهر يتنفَّس من الآفاق الصافية، ويمنَحُ أنفاسَه لكلِّ من يمُرُّ عليه.

إنهم يدخلون المدينةَ، وانا أتصفَّحُها شارعًا شارعًا، وقريةً قريةً، ومنزلاً منزلاً.

كانت آمنةً مطمئنةً فدَهمتْها ذئابٌ جائعةٌ في ظلام منقطع، ليس هناك لُغةٌ للحوار بيننا وبينَهم لذلك لم يكن بوُسعنا إلا أنْ نقفَ موقفَ المُتفرِّجين على ظُلمهم، لم نكن نملِكُ من الأمر شيئًا، هم وحدَهم يرسُمون الخارطة، ويشكِّلون طريق الهاوية كيفما يشاؤون، وكما يشاؤون يضعُون نسبةَ الدخان على وجه المدينة، في لحظةٍ واحدةٍ أخذوا ظلالَ المدينة كلّه، ودفعةً واحدة سرقوا عبق الشواطئ، وبلا هوادة قتلوا أماني الطفولة، أين كانوا؟، ومن أينَ تسلَّلُوا؟ قُبَيلَ الغُروبِ تدفَّقُوا من جنسياتٍ مختلفةٍ، وبوُجوهٍ لا جامعَ بينَها إلا القبحُ ورغبَةُ القتلِ.

هذا زمن التوحُّش... زمنُ الإبادةِ الجماعيَّة... زمن أنْ تفَكِّر بأنَّك إن لم تمتِ اليوم فإنك ستموتُ غدا... زمن أن تفكِّر بالموت أكثرَ من تفكيرك بالحياة، تشعُرُ وأنت في غابة الحياة الكُبْرى أنَّ الأرضَ والإنسانَ والمنازلَ والأشجارَ لمن يحتلُّها، كلُّ شيء صار بأيديهم، لم يكونوا أقوياءَ لكنَّهم قتَلةٌ، الخوفُ والرعبُ أعتَى أسلحَتِهم، لم يكونوا شجعانا لكنَّهم أجسادٌ وعقولٌ مفخَّخَةٌ، ونحنُ عُزَّلٌ إلا من الذاكرة والأماني المَحْفُوفَةِ بالظِّلال.

ظلَّتْ أعصابِي ترفُضُ الدخولَ تحت جلدي، أفضِّلُ أن أجلِسَ وحدي، إسماعيل نفسُه لم أعدْ قادرًا على حمْلِ أحزانَه، فأنا عاجزٌ عن حمْل حزنين كاملين، أذهب إلى دجْلَة، أذهب إليها كثيرًا، أنزلِ إلى أعماقها، إلى قاعِها البارد، كلُّها عاجزةٌ عن إطفاء حرائقي، بكل حنانها لم تكن قادرةً على أن تُشعرني بأنَّني راجعٌ إلى أحضان الحياة من جديدٍ.

في الأيام الأولى من دخولهم المدينة كانت مذابِحُهم تطارِدُنا جميعًا، صيحاتُ القَتْلى ونظراتُهم من بعيدٍ تُعَاتبنا جميعًا، تُشعرنا جميعًا بأننا قاتلون، مذابحُهم جريمةُ عصر، ووصمة عارٍ تتبعهم حيثما ذهبوا، أخذوا الناس بالغَدْر، وأغرَوهم بالعَفْو، أرواحٌ عراقيةٌ نقيَّةٌ تطيرُ على ضفاف دجْلَة، وأجسادٌ عراقيَّةٌ طاهرةٌ تستقرُّ في قاعِها. دجْلَة لو تستطيعُ الهروب من المكان هل ستهربُ بعيدًا بعيدًا، حتى لا تكون شاهدةً على ذلك الموت العظيم، حتى لا تستقبِلَ جُثَث العراقيين المقتولين ظُلمًا، لكنَّها تظلُّ وقفًا لعشاق الحياة، فَتحَتْ ذراعيها لتستقبلهم، فكانتْ أُمًّا لهم، قُتِلوا في منأى عن أمهاتهم، غابوا عن أحضانهنَّ وهم أموات، فاحتضنَتْهُم وسافرتْ بهم، الماءُ يضمِّدُ مكانَ الرَّصاص في رؤوسهم، وطيورُ دجْلَة تُغَنِّي لهم حتى لا يَرَوا وحشةً في ذلك السفر، تأخذُهم إلى أكثر الأماكن أمانًا في العالم، أكثر الأماكن أُنْسًا وجمالاً، تأخذُهم إلى ضفافها، بحنانٍ تسلمهم إلى شاطئها، وبأمنٍ ينامون هناك.

أيها النهر الخالد الذي يختنِقُ ولا يموتُ، يبعثُ فيه السفر روحًا جديدة، لقد أقحَمَكَ القاتلون في لظَى المعركة، كلُّنا خائنون، كلُّنا مذنبون، كلُّنا لا نستحق أن نشربَ من الماء المطهَّر، لأنَّنا تركناهُ مع القتلة وجهًا لوجه.

دربُ (المَلَّايَات)

المكانُ مكاني، مكانُ طُفُولتي أنا والنهر، يصافِحُني من جديدٍ كلَّ لحظةٍ، يأبى أن أُودِّعَه، من عرَف أشواقَ النهر أدمنَ على مجالسته، في صفائه أبحثُ عن الماضي الذاهب، وفي تقلُّبات أمواجِهِ الصغيرة أبحث عن تقلبات أيَّام الطُّفولة، لولاه لم يكنِ الريفُ.

الريفُ ليسَ ساقيةً تجري، ولا ماكنةً تدفَعُ الماءَ من النهر إلى الحقول، إنه ذاكرةُ وطن، واخضرارُ حياةٍ، حكايةٌ يقطُرُ منها النَّدى، وأرواحٌ تُعْلن انتماءَها الحقيقيَّ إلى المكان، الريفُ أغنيةٌ تتَّجِهُ صوبَ الحقول، وموالٌ يردِّدُه الجرفُ، وحدَه قادر على ترويضِ الصَّيف، أجسادٌ سُمْرٌ تمسُّها شمسُ الصيف، فتلجأُ إلى أحضان دجْلَة.

تدفعنا الأيامُ إلى الأماكن المُعتمة، والنهر ذاكرة طفولة، ورصيد الفرح الذي يتسلل عبر الزمن، في زمانهم الموحش الموصد يتشرَّد الناس، ويكون النزوحُ والهجرةُ والتهجيرُ والمهجرون واللجوءُ من المصطلحات المألوفة في قاموس الناس، يأخُذُ الناسُ نصيبهم من التشرُّد ويمضُون، لتكونَ المدنُ سحائبَ من الحلم البعيد، ورياحًا من الأماني

المستحيلة، لا يستطيعُ الناسُ أن يُمْسكوا باليقين الذاهب.

يعبُرُ يعبُرُ على الرغم من صحراء التِّيْهِ ليُذهبَ عني كثيرًا من ظمأ الاغتراب، البيوتُ الوارفَةُ الظِّلال، بيوتُنا الدافئةُ بكل ما تختزنُه من ذكرياتٍ، كلُّها تكونُ بأيديهم، يعبثون بذاكرتِنا، ويكادُ النازحُ يطير من الفرح حين يجِدُ غرفةً رطبة مظلمةً للإيجار، في المدن الأخرى يكتبون عن قراهم النائية فيحملون معهم خرائِطَها، والخريطةُ حين تَثِبُ من الذاكرةِ تكونُ جُزءًا من الروح التي يسكنُها الشوقُ، في الأرواح تسكن المدن النائية.

مررْتُ على تُرابها، كم مشَى هنا من بشَر...

أشربُ من مائها الصافي: كم سبَقني إليه آخرون...

عجيبةٌ هذه الأنهارُ، هي دجْلَة نفسُها تمرُّ على الأماكن؛ ولكنَّها في كل مكانٍ تكتسي بهُوية جديدَةٍ، وفي كل مكان تتَّشحُ بشاطئينِ جديدين، من يشرب من ماء الأرض لا بد أن يَغار عليها، لا بد أن ينتفضَ إن لوى أمواجَها الغرباءُ.

تتساقطُ الأوراق، أوراق العمر، وتبقى أوراقُ الذاكرَةِ عالقةً في الرُّوحِ، وأنا أمضي، ورائي طفولةٌ تغريني بالفرح، وتُحيل الذاكرة إلى ابتسامة وسعي عابث حتى يتعبَ الجسد الصغير الهزيل.

تأتيني رسائل الغُرباء من بعيد، تهفو لدجْلَة وغروب الصيف، وهم هناك في غُرف العذابِ المُظْلمة، وهي

ما زالت تحاول نشر أفراحها على وجه المدينة، على الرغم من أحزان الفلاحين.

تأتيني رسائل الغُرباء، فتقتحمُ الروحُ غربَتَهم، تشارِكُهم نزيفَهم المُرّ:

الأنهار تحمِلُ هُويَّة المُدُن، والمدُنُ التي لا يسكنُها نهرٌ تجف أرواح بنيها، تتصحَّر أفكارُهم ومشاعرُهم، لا يكونون مسكونين بالندى، ولا بالشفق الذي يفترش الماء.

دجْلَة والقاربُ الكسول لا يفزعان السمك، من ذلك القارب الذي يسكن الذاكرة، يأتيني صوت حزينٌ قديمٌ، ذلك الصوت ذات عصر لامَسَ قلبي الصغير الذي لم يتجاوز العاشرة ومضى، من بعيد، من منتصف دجْلَة يأتيني، فهمتُ منه بعض الكلمات:

- يا أمْ ثُوْب الأحْمَر.
- بِيْتْنَا.
- ملَّاية.

لم أكن حينَها أعي تلك الكلمات، كبُرتُ كبُرتُ... (والمَلَّاياتُ) ما زِلْنَ يعبُرن من طريق الذاكرة إليَّ الآن في غرفتي، نساءٌ في ريفنا القديم، يجلبْنَ الماءَ من النَّهر، قبل أن تُنْشَأ مشاريعُ الماء في القُرَى، من دجْلَة الكريمة، من شاطئها الصافي، من جانب البُيوت يمشين، همسُ (المَلَّايات) أجملُ ما في ضُحَى الرِّيْفِ النَّائي، ضُحى

صافٍ وماءٌ ونساءٌ... أدفع الأشياءَ من حولي، يحاصِرُني الحاضرُ بكل قُبْحه، يتكَوَّرُ الواقعُ في غرفةٍ رطبةٍ مظلمةٍ، أصرُخ بصخبٍ يفوق صخبَ مدينةٍ كاملَةٍ، أنسَى الظلامَ المحيط بي، وجدرانَ الغرفة التي يقفُ القتلة على مَقْربة منها، أغيب أغيبُ عن هذه الأحجار، أغيبُ أغيبُ عن هذا الزمن، لأفتَحَ نوافِذَ الزمن القديم فأرى حمائِمَ تجعلُ الأيامَ مسكونةً بالهديل...

أنادي وأنا في زمن القَحْط والخَوفِ والذُّلِّ، وأنا في ليلٍ ساكتٍ وغرفَةٍ تقفُ الذئابُ البشريةُ على مَقْربة منها:

– يَمَّلايَة، مُرِّي امْلِي مِنْ خزَّانَّةْ... يَمَلَّايَةْ...

لا أرض تبعدني عن عنها، ولا حزن يطغى على فرح الريف القديم.

كبُرْتُ كبُرْتُ... فأدركتُ لماذا كان ذلك القاربُ يُهدي أشواقَه إلى الماء، إلى الشاطئين، لماذا كان يُنادِي بأعلى صوتِه متماهيا مع :(أمْ الثُّوْب الأحْمَرْ)...

سلاما لِتلكَ التي ارتدتْ ثوبًا أحمَرَ في زمَنٍ من أزمنة الريف ومضتْ إلى النهر...

سلامًا لها وقد توهَّجَ الأحمرُ حُبًّا وشوقًا ولوعَةً وإغراءً واشتهاءً...

سلامًا لها وقد مضت من بوَّابة الحُبِّ إلى بوَّابة الشوق...

الآنَ الآنَ وقد امتدَّ بي العُمُر حتى بلَغَ أشُدَّهُ، الآنَ الآنَ أنا على يقينٍ بأنَّه لم يتَمَلَّكْها، لم تصرْ زوجتَه أبدًا، على الرَّغْم من أنَّني لا أعْرفُهما؛ لأنَّنا دائِمًا لا نُغَنِّي للنساء اللواتي يكنَّ بين أيدينا!، نغَنِّي للغيابِ، للحُبِّ الذي لا يكتَمِلُ، للمُطْلَق، للمرأة التي يكونُ بينَنَا وبينَها حشدٌ من الأسوار، لذلك يكون غناؤُنا بكل هذه اللوعةِ، وتكونُ أجنحةُ أمانينا دائمةَ السَّفَر في سماءِ الأمنياتِ.

تغيبُ تغيبُ الأماكنُ كلُّها وتبقين معي في صحرائي اللاهبة، تغيبُ تغيب الشواطئ كلُّها ولا يبقى معي إلا شاطئ واحدٌ، هو شاطئ الطفولة الغاربة.

غنَّيْتُ غنَّيْتُ فعدتُ حزينًا بلا غناءٍ، ضحكتُ ضحكتُ وعدتُ وجهًا باكيًا في غُرْفة مظلمةٍ.

أجوسُ خِلال عتمة الأيام...

أسرِقُ نفسي من قَبْضة الحُضُور الكئيب...

أنتمي للغياب...

أُغْلق بوَّابة هذا الزمن الذي لا يرحَمُ، وأمضي متسلِّلا، لأرتديَ مرة أخرى دشداشة عتيقةً وأركضُ، دون أن أدري لماذا أركضُ: أكثرُنا بطولةً من يُثيرُ خلفَه سحائبَ من الغبار، أتلفَّتُ فلا أرى إلا ظلامًا وغرفةً موصدة.

أين غبارُ الزمن السحري؟

الحزنُ يخنقني حين تلفَّتُّ خلفي فلم أجد غبارًا ما.

تمرُّ الأيام يومًا بعد يوم، وتمرُّ السنين، ودروبُ الطفولة تكاد تضيع في زحمة الأيام.

مَنْ يُلْبسُني اليومَ تلك الدشداشة العتيقة ويقودُ يدي إلى غبار ذلك الطريق؟

هذا العمرُ تورَّم فوقَ رُوْحِ الطفولَةِ، هذه الطرقاتُ التي يكسوها الضياءُ لم تعد تُغْريني، أنظُرُ إلى الناس، لا غبارَ خلْفَ السَّائرين، يأتون بصمت، ويسيرون بصمتٍ، ويغيبون بصمتٍ.

بعد أكثر من ثلاثينَ سنةً، وبعد حزنٍ طويلٍ اكتشفتُ أن الشوقَ ليس من صِناعة الإنسان وحدَه، فالقُرى والأنهارُ والأشجارُ والحمائمُ كلُّها تشتاق.

أفراحُ (الكِيوَلِيَّة)

أيَّتُها القُرى السُّمر من علَّمكِ البكاءَ بكُلِّ هذا الشجن، نحيبُ القُرَى لا يهدأ، وجوهٌ لا أعرفُها، ووجوهٌ أبحثُ عنها فلا أجدُها، الحربُ حين تعصف بديار لا قبل لها على الحرب تبعثِرُها جميعًا، وكأنَّها عاصفةٌ اجتاحت خيمةً قصيَّةً، تتعدَّدُ الألسنُ، وتختلفُ الوجوهُ، والقُرى مرغمةً تفتَحُ نهارَها لاستقبال القادمين، ومرغمةً تفتح ليلَها ليهرُبَ أهلُها عن المكان، لا تستطيع أن تضمَّهُم إلى نهاية المطاف، يطوفُ بها الحزن، وتضربُها مطارِقُ الألم...

والصمودُ شعارٌ بائسٌ عاجزٌ؛ هو يعني أنَّك تبقَى ثابتًا لاستقبال الحُزْنِ، وتلقِّي الفَجيعة!

الماءُ لم تتغيَّرْ ملامِحُه، كلُّ ما حولَ دجلةَ تغيَّر إلا هو ما زال مختزنًا طفولةً لا تنتهي، هذا الطريقُ صارَ مُعبَّدًا، اكتسى بالسواد، ذهب الغبارُ عنه، ولم يعد يَنْبُتُ على جانبيه شجرٌ ولا وردٌ ولا شوكٌ، هذا الطريقُ أعرفه، من الذاكرة يمتدُّ إلى أكثر من ثلاثينَ سنة.

ثلاثونَ سنةً مضت.

.....

الطريقُ سيارةٌ (شوفر ليت) قديمةٌ وظعنٌ قديم، والناس أعينٌ فضوليَّةٌ تعبُرُ مع السيارة، وأنا الصغيرُ الذي لم يتجاوزِ السادِسَةَ، أنظرُ مع الذين ينظُرُون، دون أنْ أعرفَ أسرار الحكاية، لم يكن منظُرُ السيارة، ولا منظرُ الذين فيها غريبًا، ولكنَّ في العيون شوقًا لمجيئهم.

هم الغجَرُ... مثلَ الطيورِ النادرة لهم مواسمُ يجوبون بها القُرى، ودائمًا ينزلون بأطرافها، ما أجمل ألا تتكلمَ عن الغَجَر بلسان أيديولوجيٍّ، ولا تسلِّطَ الضوءَ عليهم ديموغرافيًّا، ولا تضعَهم في ميزان المبادئ والأخلاق لتزِنَهم، ولا تتكلمَ عنهم وفق مقولات الفضيلة والرذيلة، ما أجمَلَ أنْ تترُكَ هذا كُلَّهُ لتتحدَّثَ عنهم بأنَّهم متأصلون في ذاكرة النهر، وأنهم صوتٌ قديمٌ من أصوات القُرى، لذلك ستجدُ نفسَكَ مجبَرًا على ألا تسمِيَهم بالغجر، ففي هذا الاسم يشتركُ غجرُ العالمُ كلُّهم، وأنتَ تريدُ أن تتحدَّثَ عن غجرِنَا نحنُ، غجر الريف الذي تبصرُه من ضباب الذاكرة، إنهم الغجرُ أنفسُهُم الذين نسميهم نحنُ: (الكِيوليَّة)، الذين يأتون ومعهم أدواتُ الفرح والحزن التي تُخرج القرى من مألوفها، كانوا أذكياءَ في مجيئهم، يأتون وقت انتهاء المواسم، بحُزْنٍ من ربابةٍ، أو بنَقْرةٍ على طبل، يستطيعون أن يأخذوا من الفلاحين محصولَهم كُلَّه.

في الدار، ولم أتجاوزِ السادسة، جاءَ أحدُهم يطلُبُ خُبزًا وسُكَّرًا، حذَّرنا الأهلُ من الاختلاطِ بهم، فقلتُ لهُ:

– ليس عندَنا، بكُلِّ عزْمِ الطفل الذي يحفظُ وصيَّةَ الأهْل. فقال:

– إذا أعطيتَني (عودْ تعالْ عندنا نْونسَكْ)!

على الفورِ نسيتُ وصيَّة الأهل، أمامَ إغرائه ذاك، لم أكُن أعلَمُ ما الذي تعنيه أفراحُهم، أعطيتُه نصفَ ما في الدار.

ولمَّا غربت الشمسُ تسللتُ إلى خيامِهم، كان وفيًّا لمَّا رآني، أدْناني من الخَيمة، رأيتُ رجالاً بوَقار عجيبٍ يجلسون، وامرأةً تغني وأخرى تُحرِّك رقبتَها وهي جالسةٌ، على كتف أحد الرجال يسافر شَعْرُ إحداهُنَّ لطُولِه وشدَّة التصاقِه بها، ذاكرةُ الطفل، وقلبُ العاشقة لا ينسيان البداياتِ الأولى للحرائق، ولا ينسيان لحظة الدهشة الأولى، ولا يغيبُ عنهما المكانُ الذي انطلق منه الخيال:

– زَعلانْ جَنْ التَّرْفْ من واجب انْرضيْهْ

– تَرى عِينُو غَديرْ الحَجَرْ صَافِيْ كِدَرْ مَا بِيْهْ

.....

– لا تِنِجْرِينْ العِرِفْ يا دارْ لُوْ جِيْنَهْ

– تَرى يَامَا كِعَدْنَا بْدِجَنْ إحْنَا وْغَوَالِينَهْ

ثم يغيب ذلك الحزن المنشورُ كله بنقرة طبلٍ واحدةٍ؛ لأنَّهم يملكون أدواتِ الحزنِ والفَرحِ، يتصرَّفون بها كيفما يشاؤون، فبنقرة طبل واحدةٍ يجعلون الخيمة كلَّها تتراقص:

– كُلْ الْهَلا بالحَدَثْ كُلْهِنْ كُلْهِنْ

- رِيْحَةْ مِسَجْ وِخْضِيْرَةْ ابْطِيْفْ كْذَلْهِنْ

بالتأكيد هذا ما كانوا يقولنَه، فذاكرةُ الطفلِ لا تخونَ صاحبَها مهما امتدَّ الزمنُ.

مضَى زمنٌ... والقُرَى صافَحَتِ المُدُن، اشتركا في الطُّقوس، (والكِيْولية) تركُوا أطرافَ القُرى واستقرُّوا بأعماق المدن، صاروا صوتًا أصيلا منها، ولم يعودوا يقتنون سيارة (شوفر ليت) قديمة، ذهبوا ولم تذهبْ حكاياتُهم عن ذاكرة القرى، رحلُوا وما زالت أصواتُهم عالقةً في جُدران الطين، باقيةً في الدروب، في دروب الحياة، فأيُّ غيابٍ يكون في منأى عن نشيدِهم الأثير:

- لا تِنِجْرِينْ العِرِفْ يا دارْ لُوْ جِيْنَةْ

- تَرى يَامَا كِعَدْنَا بْدِجَىْ إحْنَا وْغَوَالِينَةْ

كانَ (الكِيْوليَّة) آنذاكَ مثلَ الشُّعراء الجاهليين، يُكْثرون من البكاء على الديار؛ فلم تكن لهم دارٌ تَسَعُهم مدى العمر، وإنَّما كانتْ لهم ذكرياتٌ عن كل أرض يمرُّون بها، كانت دورُهم تسكنُ في بكائهم، يأخذون الأماكنَ كلَّها معهم في (الشوفر ليت) ويمضون، كانتْ أحلامُهم متأرجحَةً في أطراف أكثر من قرية، كانوا ينتمون إلى الحياة نفِسها، والذي ينتمي للحياة يكونُ أكبَرَ من أنْ تسعَهُ دارٌ واحدةٌ، كانوا يتقنون إنشادَ الحزن والفرح في لحظةٍ واحدةٍ.

ذهبُوا فبقينَا بلا (كِيْوليَّة)...

صرنَا لحينٍ ما رعيلاً مَهُولاً مُروِّعًا من الشُّرَفاء، فلم نستطعِ احتمال تجربةَ أن نعيش من دونِهم، أن نعيشَ تجربَةَ غيابهم طويلاً!، فرُحنا نبحثُ عنهم في أعماق المُدُن، فتحوَّلت تلك الخياناتُ البريئةُ إلى فواحشَ في آناء الليلِ والظلامِ، فتغيَّرتِ الطقوس، لستُ أدري لماذا كانت الخيانَةُ معهم مشروعةً في دستور القرى، بل تُقاسُ رِفْعة الرجالِ بما لديهم من حظوة عندهم، وحين تذكر أمجاد الماضين يذكر أنه آواهم.

هل كان ذلكَ الزمنُ صافيًا بذاته فلم يستطيعوا تكديرَه، أم كانوا يحمِلونَ معهم من طريق إلى طريقٍ صفاءً آخرَ؟

أحيانًا تكونُ السذاجةُ مهربًا من عُقَد الإنسان، فعَلاقات الناس معهم ساذجةٌ، وطريقة الجلوس في خيامهم ساذجةٌ، وطرقُ الوصول إليهم ساذجةٌ، فكان أهل الريف يضحكون يضحكون حتى غياب آخر دِرْهم من جيوبهم.

احذرْ... الطريقُ باتجاهٍ واحِدٍ!

– أرجوك يا كامل، سيرانا الناس.

– اتْركيهم يَرونَنا... فليفْعَلوا ما يشاؤون.

– سيقتلونك.

– قولي لهم أي شيء، قولي لهم جاء يطلب خُبزًا، سيصدِّقون، ولكنَّهم لن يصدِّقوا أني أحبُّكِ.

– كامل، إلى متى؟ إلى متى تغامر بروحك، لا بد أن ينتهي ما بيننا، ثق أنني خائفةٌ عليك.

– أعلم، لكنني لا أستطيع أن أتخلى عنك، إنني مثلُ البشر، انظري ليس مكتوبًا على جبيني: (كِيْولِي)، مريم: تزوجيني، وأعدُك وأعدُ الجميع أنني سأهجُر الأهلَ كلَّهم، سأتبرأُ من القوم، سأنتمي إلى مكانٍ تُريدين، أو يريدُ أهلُك، الناس يحتقرونَني بلا ذنبٍ، أنا أكثرُ غيرةً منهم، أنا أكثرُ شرفًا من أشرفهم، كلُّهم يذكُرُ حينَما اقترب ذلك السمينُ من إحدى أخواتي صفعتُه حتى أنزلتُ عقالَه إلى الأرض، أنا لست (كيوليًّا) أنا كامل، فهُمْ أنفسُهم يمقِتُونني ويمقتون أهلي، وينبذون خيمَتَنا، ويَرَونَنِي غيرَ فعَّال في كُلِّ تقاليدِهم، لكنَّهُ مصيرٌ مشترك، لا بد أن نسيرَ حيثُ يسيرون، وننزلَ

حيثُ ينزلون، ثقي أننا نأكل من بقاياهم، لا مجدَ لنا في دستورهم، مريم: أريد أن أعيش كما يعيش الناس، كلُّ نظرة ازدراء تُنْقص من عمري، وكلُّ شتيمة أتلقَّاها تذهب عني صفاء الحياة، أريد أن أخرُج من قاموس الغجر، أريد أن أكون إنسانًا، أريد أن يكون لي بيتٌ صغيرٌ وسط قريةٍ ما، كرهتُ السكن في أطراف القُرَى.

- كامل، أُحبكَ.

- أنتِ ما زلتِ تُلقين شعلةً في غابة من الهشيم وتَمْضين.

- ما الحلُّ؟

- قولي لأهلكِ: إن كاملاً يريد أن يتزوَّجني، وإن رفضوا فاهرُبي معي، لن نسكُن في أطراف قرية ما، سآخذك إلى أطراف الدنيا، لن يجِدَنا أحدٌ.

- أرجوكَ يا كامل، كُفَّ عن جُنُونك.

يمضي نهر الربيع إلى نداء الطيور، تودِّعُ أشجارُ الغربِ الماءَ للقاء ماءٍ جديدٍ، على حافَّة النهر كانت تسكن مريم، دجْلَة والربيع يُغريان القلب لمواصلة الحب، هادئةً كانت الأشياءُ إلا قلبُها، كان النهرُ وحدَه يسمع وَجِيْفَه، هو وقلبُ كامل جعَلاها تَرى صفاءً لا نهاية له.

- أمي، إذا أحبَّت الفتاةُ شابًّا ماذا تفعلُ؟

- تُخْبِرُ أمَّها.

– ثم ماذا بَعْدَ ذلك؟

– إذا رأتِ الأم أنَّهُ مُناسبٌ، تقول لوالدها: إن فلانًا ينوي خِطبة ابنتِنا، ثم يسمحون لأهل الخطيب بالمجيء للبيت، فيتمُّ الزواج.

– بهذا السُّهولة؟

– نعم، فالزواجُ سِتْرٌ للبنت.

تطالع الأم وجه ابنتها، فتقرأ فيه شيئًا غامضًا، أصبحتْ مزيجًا من التوحُّشِ والانكسار، وأن شيئًا في عينيها لم ترَه من قبلُ، تشعُرُ أنَّها مستعدةٌ لمواجهة معركةٍ كُبرى.

– ولكن يا ابنتي، لم تخبريني مَن هذه الفتاة؟

– أنا.

– أنتِ؟

– أجل أنا...

وتُرسل نظرَها لسفر الماء، وكأنَّها تبحثُ عن شيء مضى مسافرًا.

– ومن هذا الذي أحبَبْتِه؟

تعيد نظرها إلى النهر، وكأنَّها تُخاطبه:

– إنه كامل.

– اسم الله، فتتناول رغيفًا كاد يستقرُّ على جَمْرِ تنوْرِ الطين: أيُّ كامِلٍ؟

– كامل ابن جيراننا؟

– كامل... كامل... كامل.... هل تسخرين مني يا ابنتي، ليس عند جيراننا كلِّهم من اسمه كامل.

– بلى، إنه ابن جيراننا هؤلاء.

– كامل (الكِيْولي)؟ هل جُننتِ يا ابنتي، لا بد أنَّكِ تمزحين.

– لا، أنا لا أمزح، أنا جادَّةٌ، واتفقنا أن يأتيَ أهلُه اليوم ليخطبوني.

– يا ابنتني أرجوكِ لا تفضحينا، (الكِيولية) لا يتشرَّف الناس بمجاورتهم، فكيف يرضون أن يزوجوهم؟! سيقتُلك أِبوك.

– سأتزوَّجه، ولو كلَّفني الأمْرُ أن أهرُبَ معَهُ.

كان الليل ساكنًا، والربيعُ يضاعف من إرسال ضَوْعِه إلى الأرض، وأمُّ مريم بينها وبين الربيع حجابٌ من الخوف والوجل، وتمرُّ الأيام ولا تفلح في إقناع ابنتها بنسيان كامل، فتدرك أنها مُصرَّةٌ على الزواج به.

– أبا مريم، هل تعرف كاملاً؟

– كامل (الكيولي) نعم أعرفه جيدًا، إنه أشرف (كِيولي) رأيتُه، حرامٌ أن يكون هذا الولد (كيوليًا)... ما به؟

– يريد أنْ يأتيَ هو وأهلُه إلينا.

– أهلاً بهم، حاضرون لمساعدتِهم.

– هل عندك تصوُّرٌ عن سبب مجيئِهم؟

– لا، أبدًا.

– تصوَّرْ أنهم يريدون أن يخطبوا مريم لكامل.

– كامل (الكيولي) الوسخ القذر، يريد أن يكون نسيبنا، كيف تجرَّأَ على ذلك؟

الغجر خيامُهم لا تحفظ الأسرار، أسرارُهم تحمِلُها الرياح قبل أن تحملها أفواهُ الناس، وهم يمقتُون كاملاً وأهلَه، فذاع خبر حُبهما في القرى.

الناس إذا أرادوا الانتقام بظلم لا بد أن يزيِّفوا الحقائق، (الكيولية)، فأشاع والدُ مريم بأنَّ كاملاً اعتدى على ابنتِهم، وأن ابنته جاءت تشكو إليه من اعتدائه أكثر من مرة، فانتفضوا، يقودُهم ذلك السمينُ انتقامًا لعقاله الذي سقط على الأرض.

الغجر ثروةُ الفرح والغرام والجِنْس المُدَّخر في أطراف القرى، كلُّهم لا شأنَ لهم إلا بيت كامل، خيمتُه يتراكم حولَها الثائرون، ويتراكب الذين يحملون أوتادَهم وعِصِيَّهم، بلا تعبٍ يقبضون على كامل، فيتسابقون على ضربه، وقومُه ينظرون، كلٌّ من يدافع عنه سيكون شريكًا له في الجريمة، فيكتفون بالتفرج، وتكتفي نساؤهم بالعويل والصراخ، كاملٌ جسدٌ من الدماء، من لا شأن له يريد أن يكون له شأنٌ، ومن لا بطولةَ له يريد أن تكون له بطولةٌ على جسدٍ ملقىً

على الأرض، حتى يأتي مُؤذِّنُ القرية، يفزِعُه الصُّراخ:

- حرامٌ عليكم، هذا إنسان، ما جريمتُه.

- إنه اعتدى على أشرفِ نساء القرية.

- ولكن ليس من الشَّهامة أن تجتمعوا عليه بهذه الوحشيَّةِ...

فيُبعدهم عنه.

أنينٌ خافتٌ، وحروفٌ خفية، يحاول السمينُ أن يقضيَ على ما تبقى من روحه، فيمنعُه المؤذن، يحملُه لبضعة أمتار، حتى يُلقيَه على الشاطئ، يغسلُ جسدَه الذي أصبح قطعةً من الدماء، يتناول قِطعًا باليةً من القماش، يضمِّدُ بها بعض جروحه، يجري دمُه على رمال الشاطي فيُخفيها الموجُ بهدوء، يُسجِّيه على قارب قديم فيُبعده عن الغَضَبِ الذي ما زال مُتَوقِّدًا، دجْلَة تمنَحُه مساحةً من الحياة، تفصِلُ بينه وبين الموت، يُوْدِعه المؤذن لدى بيتٍ بعيدٍ، ويوصيهم بالعناية به.

يكاد النهر يعبُرُ شاطئه غضبًا؛ لأنه شاهدٌ على الحب، يشعر بالذنب، ويحيطُ به الأسى لأنه هو الذي أغرى قلبين على شاطئه ليُغَنِّي أحدُهما للآخر، لولاهُ لظلَّ كاملٌ يسكن في صحراء خوفه وانتهت الحكاية، لولاه لذبلت كلماتُ الغرام، وماتت حروفُ الحب داخل كهوف الخوفِ والترقُّب.

النهرُ له حديثٌ لا يفقهُهُ إلا الحالمون، حينَما كان الناس

يضربون كاملاً، كان ينادي:
– أنا شاهِدٌ على لقاء الحب، وحكاية النقاء.

لكنهم لا يسمعون، النهر يجفل حين يلامس الدماء.

يغيب كامل عن مشهد القرية، ولا تغيب حكايتُه، تظل محفوظة في دفاتر الجرف، الذي خاصم كلَّ من ضرب أو شتَم كاملاً؛ لأنه يعي أنَّ هذا الحبَّ أسمى من أن يُقتَل، وأجلُّ من أن ينتهي بدم يُراق وأنينٍ خافتٍ، فقد خرج عن المألوف.

ما زال النهر غاضبًا؛ لأن ذاكرة القرى تُثقلها حكايات الذين عشقوا من الغجر، وتزوَّجوا من الغجر، وظلوا يتسابقون كهولاً وشبابًا إلى خيامهم، دون أن يُنكر عليهم أحدٌ، فلماذا قامتْ قيامةُ القرية حين أحبَّ غجريٌّ فتاةً من القرية.

الأنهارُ عذبة صافية لا تكذب ولا تَنافِقُ، الأنهارُ علمها السفر الطويل عبر الأزمنة أن ترى كلَّ يوم آلافَ الوجوه، وحدَه الماء كان يدري أنَّ هذا الحبَّ شريكُه في النقاء، وأن كاملاً أراد أن يلغي كل انتماءاته لينتمي إلى المرأة وحدها.

كانت مريم تعلَمُ أن النهر وحدَه هو الذي يحفظ ذاكرة حبهما، وأنه وحدَه من رَضِي بالحب، وابتهج باللقاء، فظلت تحدثه، وتحمِّلُه أشواقها لغائب لا يعود، تنظر حينما اجتمع الناس على كامل، لكنَّ روعة الماضي أنستها وجع اللحظة، فقد آمنت أن الحب الحقيقي لن يستطيع أهلُ الأرض كلُّهم أن يمحوه.

طُيُورُ الشاطئ الأجْرَدِ

شواطئ المُدن لا عبَقَ فيها، لا تحفَظُ ذاكرةَ الإنسان، لأنَّ إنسانَ المدينة صديقُ الأسواق والشوارعِ والمعاملِ، وليس صديقًا للنهر، أنهار المُدُن تخترق صفاءَها فضلاتُ الناس وفضلاتُ صناعاتِهم، العابرون على النهر تُدهشهم الجسورُ، ولا تُدهشهم الأمواجُ، أنهار المدن تنتمي للإنسان ذاته ولصناعاته، لا تنتمي للنهر ذاته وهُويَّته، فالكورنيشُ من صناعة الإنسان، والجُرْف من صناعة النهرِ نفسِه، أحجارُ النهر في القرى بعضٌ من حكايَته، وحجارَةُ أنهارِ المدن مرصوفةٌ بانتظام، عليها بصماتُ الإنسان لا بصماتُ الأنهار، أهلُ المدينة لا يشربون من ماء النهر، وإنما يشربون من مشاريع الأنهار، لذلك تحتضنُ الأنهارُ شواطئ القُرى، وتحتضنُ القرى ماء النهر، ودجْلَة لا يمضي سريعًا وهو يمر على القرى، يريد أن يحدِّثَها، يحكي لها عن سفرِهِ الطويل، يقصُّ حكاياتِ الرحيل، يتلو سفَرَ الرُّجوع.

أيُّها الحطابون، لا تتركوه نهرًا أجرَدَ، دعوه يُشكِّل جمالَه كيفما يشتَهِي، الأشجارُ ذاكرةُ النهر، فلا تقطعوا هذه الذاكرة، أشجارُ النهر للظِّلال، وللغُمُوض الجميل، لا لتنوْرِ

الطين، يشعُرُ بالاختناق حين احتلَّ أصحاب الرايات السود الأرضَ، نَفِدَ الوَقود بكلِّ تفاصيله، فلجأ الناسُ إليه، راحوا يقطعون أشجارَه، أمسى نهرا أجرد، أضْحَى شواطئ بلا ظلالٍ، وطيورًا تبحث عن أغصانها الأولى، أوجعَ الحطَّابون ذاكرته.

- طا طا طا طا.....
- طا طا طا طا.....

..... نورس قتيلٌ على الشاطئ الآخر.

أيها الأخرَقُ... الأحمقُ... السفيهُ... التافه... الحقير...

هل انتفت الأماكنُ كلُّها، هل ضاقت بك الفضاءاتُ فلم تجد إلا دجْلَة لتطلقَ عليها النار، كان يتسلَّى بذلك، يُدْهشه صوتُ ارتطام الرصاص بالماء فيَزيد من إصرارِهِ ورصاصِه.

أيها الأخرق: دجْلَة يُوجعها الرصاص، إنها للسلام لا للسلاح، يُجْفلها الرصاص، تخدشُ وجهَهَا النارُ، أيها الأخرق العابثُ... ما الذي يغريك بمشهَدِ رصاصةٍ تستقرُّ بقلبها، لا فرقَ بينها وبين رصاصةٍ تستقر بقلب أنثى بكامل فرحها وألَقِها، أتركْ الماء لهدوئه، واتركها لسلامها.

تقولينَ: (أُحبُّكَ) وتمضين، فأبْقَى أمضغ حروفَك حرفًا حرفًا: أُحِ بُّ كَ... وتظلِّين قصيدَةَ النهر، وسيِّدَةَ الماء، أقولُ لك:

– ماذا تتمنين؟

– أن أتكيء على كَتِفِك، ونغنِّي أمام النهر عصرًا كاملاً.

الماءُ لا ينسى أبدًا وجوه النساء اللواتي نظرْنَ إليه، حينما تنتمي امرأة ما إلى النهر تكونُ صافيةً نقيَّةً، فالنهر يطهِّرُها، تتجدَّدُ ذاتيًّا كلَّ لحظةٍ، امرأةً تشاركه الصفاء، تحمل براءة الماء، وحنانَ الموج وهو يلامِسُ الشواطئ.

أشجار الغرب تُشكِّلُ لُغة الشاطئ النائي، لا يسكُتُ الشاطئ إلا في الليل ليترُكَ الماء المسافِرَ يكمِلُ بقيَّةَ الحكاية.

أيُّها الحطابون لماذا أسكتُّمْ لُغة الشاطئ، وتركتُم الماء وحدَه يحكي قصة النهر الذي أمسى بلا شجَرٍ، يحفر المحتاجون ترابَ الجرف ليستخرجوا عُرُوق السُّوس التي تُباع بأبْخَسِ الأثمان، دجْلَة يغضَبُ وهو يودِّعُ أشجارَه وجذورَه، لا يغضَبُ على الفقراء المحتاجين، وإنما يغضَبُ على أولئك الذين لم يتركوا للناس سبيلاً إلا أشجارَ دجْلَة.

غنيتُ بحزنٍ طاغٍ، وأنا أجزُّ أغصان الغَرَب بلا رغبة، ولكن لا سبيل إلا إليها:

– مَانِيْ صِحِتْ يُمَّهْ أحا جَا وِيْنْ أهَلْنَة...

– وِلْفْ العُمُر ظلْ بالدَّارْ وابْعَدْ ظَعَنَّهْ.

لم أكن أدري أنَّها في المكان، توقفتْ عن كل شيء لتسمَعَ

الغناءَ، أعلمُ أنني أقطَعُ ذاكرة دجْلَة، وأمْحُو شيئا من ربيع عمرها، ولكنْ لا محيدَ عن ذلك، أدرتُ ظهريَ للماء وأنا أقطَعُ الأشجار، خوفًا من عتابه.

بحجَّة أن تشربَ الماء أقبلَتْ إلى النهر لتُشْعرني بوجودها، رأيتُها تمشي فنزلتُ من أعلى الشجرة، قادمًا إليها:

– أيمن، أيمن... أيُّها المجنون، سيراكَ الناسُ.

– هذه الجهةُ من النهر جرداءُ، بالتأكيد سيرانا الناس، ولكنَّ وُجُودَنا في مكان أجردَ لا يُثير ريبةً عند أحدٍ ما، ثم إننا اجتمعنا صُدفَةً لنشربَ الماءَ.

– ثعلبٌ!

– العاشقُ إذا لم يكن ثَعْلبًا تفتَرِسُه أعينُ الناس.

– منذ متى لم أرَكَ؟

– منذ شهرين.

– مُجْرِمٌ.

– ليس بيدي، إنَّهم إذا رأونا أو عَلِموا بِحُبِّنا سيُعْدموننا، الحبُّ في شريعَتِهم جريمةٌ كُبرى، أغبياء لا يفرِّقون بين الحُب والزنا!

– أمَا تخشاهم الآن؟

– لا، لم يعودوا يعرفون الشواطئ النَّائية، وجَدُوا أنْفُسَهم في زحام المدن.

– أيمن، تُحبُّني؟

– أحبك، وأحبُّ النهرَ، وأشجار الغرب، والشاطئ، وكلَّ شيءٍ جمعني بكِ.

الطيور تُغنِّي من بعيدٍ، تُعبِّر عن لوعتها، كانت تجفُلُ من الناس، أعشاشُها العاليةُ هبطت إلى الأرض.

– هل تأنسُ الطيوُر لوُجودِنا هنا؟

– بالتأكيد لا، فقد اقْتحمنا ديارَها، وأخذْنَا بُيُوتَها.

– قد تكون الطيور الآن لا تفرق بيننا وبينهم.

– أجلْ، فقد لا تعلم بأنهم هم من ألجأوا الناس إلى مصادرة منازلها.

– أنا ناقمٌ على نفسي وعلى الحطَّابين أكثر من نقمة الطيور أنفسِها، لأنَّنا جميعًا تركْنَا الشاطئ بلا ظلال، تركنَاهُ مساحاتٍ جرداءَ لا تواري أحدا.

– ألم أقل لك إنكَ عاشقٌ ثعلب؟!

يغزو الشفقُ طيورَ دجْلَة المشرَّدة، فيزدادُ غناؤُها الحزين، تعلن أنها مفجوعة، تقف أمام الماء وجهًا لوجه، أسمعُ نحيبَها وهي تقول:

– لماذا أيُّها الإنسان؟

أجْنِحَتُها لا تُسعفها على الرحيل بعيدًا، فهي مشدودةٌ بهذا المكان، هنا أماكنُها الأولى، وهذا شاطئها القديم، للأرض نبضٌ لا يسمعه إلا من ترك قلبَه يُصْغي لنبض الأرض، الطيورُ تَرى الناس يجرُّون ذاكرتها جرًّا إلى بيوتهم،

إلى مواقِدهم، تدنو الطيورُ إلى رؤوس الحطَّابين في لحظَةِ سُقُوط أعشاشها، كأنَّها تستعطف البشر، فتسقطُ الأغصان العالية، وتنأى الطيور مرةً أخرى بعيدًا بعيدًا حتى لا ترى لحظة السقوطِ المُرِّ.

– هل تظنين أن الطيور ستُسامحنا، أو أنَّها تنسى في يومٍ ما هذا المشهدَ الحزين؟

– هذا المشهد للبقاء لا للنسيان.

– أنظُري إليها، لا تغادِرُ هذا المكان، متى ستنتهي أحزانُها، هل ظَلمت أنفسَها حين أفرطت بحبِّ المكان، فأجبرها ذلك على البقاء فيه، لا أظنُّ أنها ستذكر أفراحَها الأولى، ولا نشيدَها القديم، سيُلغي هذا المشهدُ المقيمُ ذلك كلَّه وهي ترى أعشاشها تسقط على الأرض، تُحوِّم فوق نداءات أفراخِها ولا تستطيع فعل شيء، أفراخُها تموت بصمتٍ مذهلٍ في الدغْل، والحطَّابون لا يُدركون وجع الطيور.

– الآن أدركتُ لماذا صار غناؤها بهذا الحزن.

– هذا النهر الخالد، لماذا نُلغي تاريخه، لقد تركَنَا القاتلون مشردين مهجَّرين نازحين، صادروا بيوتَنا وتاريخَنَا، فعُدْنا إلى هذه الطيور لنجعلَها مثلَنا، هل كانت أشجعَ منا، فقد لزمت أماكِنَها ولم تهجرْها، هنا كانت منازلُها، أتراها تأوي إلى مكان بُيُوتها في الليل حين يعود الحطَّابون من عملهم، لِتطالِعَ أفراخَها الميتة، وبيوتَها المحطمة، وبقايا من

أعواد أعشاشها التي ذهبَ مستقرُّها الدافيء، هل تظنِّين أن أمَلاً ما يسكُنُ في ضمير هذه الطيور بأنَّ ما بقي من جذور الأشجار ستعود إليها أغصانُها في يوم ما، وأن ظلاً وارفًا سيُغطِّي هذا المكانَ الأجرَدَ من جديد، وانها ستُودِعُ أعشاشَها بين السماء والأرض في هذا المكان ذاته.

– أيمن، متى سنلتقي مرة أخرى؟

– حين تكون الطيور بعضًا من نشيْدِ الضُّحى.

– ما أصعبَ أن أقول لك وداعًا، ولكنَّ الشمس تدنو من المغيب، الشمس هي التي كتبتْ حروف وداعِنا.

– ضحى، أحبُّكِ.

– أيمن، أحبُّكَ.

تجفُلُ أوراقُ الشجر جميعًا، والأشياءُ كلُّها لا تقف على الحياد، وترحلين مع المغيب، وكأنَّه الغروبُ الأخير، لتتركيني مع طيورٍ باكيةٍ وشاطئ أجرَدَ موحش ٍالطيور كلُّها تغنِّي غناءً مُعمَّدًا بالنحيب.

ضُحى: أنظر إلى هذا الفراغ الذي عليَّ أنْ أحْمِلَ كلَّ عَنائِه.

ضُحى: هل كانت الطيور ناقمةً علينا أكثَرَ من غيرنا لأنَّنا سمِعْنا بكاءَها ولم نكفَّ عن قطْعِ منازِلِها، لكنَّها الحياةُ تُجبرنا على فِعْلِ ما لا نحب، في القرن الحادي والعشرين نتصرَّف مثل السُّكانِ البدائيين في الغابات.

ضُحى: يا فتاةَ الريف الأولى، يا قمرًا نزل من عليائه إلى الشاطئ، يا أنِيْستي في مغربٍ حزينٍ، ماذا كنت سأفعلُ لو لم تجيئي إلى الشاطئ.

لن يستطيع القاتلون كلُّهم ان يصادروا عشقَ الريف، لن يهتدوا إلى منازل غرامِنَا القديم، ولَنْ يُجْهزوا على مواطن الحب الأوَّل.

ضُحى: اعترف أنَّك أكثرُ شجاعَةً مني حين استطعتِ أن تبتسمي أمامَ الوداعِ والغُرُوب وأنا كنت أجرُّ ورائي خيبةَ عُمرٍ كاملٍ، أعترف الآن وأنا نقطةٌ تائهةٌ في فراغ لا فرحَ فيه، أن الفَرح هو الانتصارُ الحقيقي، لأنَّ القَتَلة يريدون بكاءَنا، لن تكون النهاية حتى ينتصِرَ الحب.

ضُحى: لماذا تركتِ عملَك وجئتِ إلى الشاطئ، إليَّ أنا، ما الذي أجبَرَك على المجيء، أهُو غنائي الحزين فأشفقتِ عليَّ خوفا من مخَالبِ الحُزْن، أم هو الحبُّ يجرُّ خُطَى الإنسان دون وعيٍ إلى حبيبِهِ، أخشى أن أتذكَّر الطيورَ الباكيةَ كلما ذكرتُ لقاءَنا، أريْدُ أن أفصِلَ بينَك وبين الحُزْنِ وآلاتِه وأدواته ومعانيه، أريدُ أن أراك امرأةً من الفرحِ الفريد، امرأةً من الضحك المجنون، امرأة يجمعُني بها نهرٌ وظلالٌ وأشجارُ غربٍ كثيفةٍ!، نريدُ ان يحفَظَنا دجْلَة في دفتر أسرارِه، نريدُه وحدَه أن يكون شاهدا على رحيلِنَا إلى المُطْلق.

مَطَرُ الحُبِّ الأوَّل

– سينزلُ المطرُ.

ينزِلُ المطَرُ.

مطرُ الربيع يأتي فَجأةً، على عجَلٍ تتشكَّلُ الغُيُوم، وعلى عجلٍ ينزل صافيًا عذبًا، في الثالثة عشر عامًا من العُمْر لا تخافُ من المَطَر، وفي العام الأوَّل من الحب، في حقلٍ يجمعنا الربيع والمطرُ والتقاربُ في العمر، ومعي كثيرٌ من الناس، لكنَّني لم أكنْ أراهم، فالقلبُ حين يسلط شهيَّة الحُبِّ على شيءٍ لا يرى سواه في المَكَان.

نزلَ المطرُ بشدَّةٍ، فانهمك الناسُ بحماية المحصول، ثم انشغَلُوا بالاحتماء من المطر، وكلَّما نزل زادتْ شهيَّةُ القلب، استطعت أنْ أنظُرَ إليها على مهلٍ، وأنْ أقرأَ وجهها الذي بلَّلَه الغيثُ مليًّا، المطرُ غيَّب أعيُنَ الرُّقباء، أو مَنْ كُنَّا نظنُّهم رُقَباءَ، ما أجملَ المرأةَ حين تستقبلُ رسائلَ الغيث، تكونُ ملاذًا لكل جمال، وموطنًا لكل حياة، المرأةُ والماء منهما تصدُرُ الحياة، هل كانت تحبُّ المطر إلى كل هذا الحد، أم كان مناسبَةً لنَخْرُجَ عن المألوف، ليَرَى كلٌّ منا الآخَرَ مُبتلاً بالماء.

اقتربتُ منها، كانت المسافة بيني وبينها مترًا واحدًا، قرأتُ جَسَدَ تلك المسافَةِ وتفاصيلَها الدقيقةَ، فالمسافاتُ المشحونَةُ بالخوف والقلق والرغبة تظل تصاحِبُ الإنسان مهما امتدَّ به الزمن، المسافاتُ التي تمنَّى الإنسان بكل ما يمتلك من اشتهاءٍ أن يجتازَها - فلم يستطع - لا تزولُ أبدًا عن مخيلته، نظرتُ إليها وهي تحتَ المطر، تمنَّيْتُ أن يشتدَّ نزولُه علي، فهي فرصتي لأبدُوَ مغامِرًا أكثَرَ منهَا، لأبدوَ رجلا لا يَخْشى من الماء، اكتفيتُ بالنظر إليها مبتلةً، كذلك هي فعلَتْ، لم أستطع أن أقولَ لها شيئا، رُبَّما لأنَّني لا أمتلك شيئًا أقوله، فالأطفال والصبيان يُعبِّرون عن أفكارِهم ومشاعرِهم بتصرفاتهم أكثَرَ ممَّا يعبرون عنها بكلامهم!

كانت لحظةً راسخة في دفتر العمر، فاللحظة التي تُنتزع على الرغم من الحصار الشديد لا يمكِنُ لكلِّ قُبْحِ الحاضر أن يَمْحُوَ جمالَها، دافئًا ظلَّ المَطرُ، وهادئةً بَقيَتِ الرُّعود.

ذلك اليوم أودَع فيَّ رغبة الاستمرار، استمرار المطر، استمرار العَمَل، استمرار الحب، استمرار الطفولة، تمنَّيت ألا ينقطِعَ حتى وإن تلَف المحصول كلُّه، وإن كَسَد الحقل، أودَع فيَّ رغبة بأن آخذها من كفها الصغيرةِ فنركُضَ في الدروب المُوْحلة، ما أجملَ المرأةَ التي تُحب الماءَ، وما أحلى وجهَهَا حينما يبتسمُ كُلَّما ضربَتْه زخَّات المطر، للآن ما زالت الأمطار توجِّه لي دعوةً للحبِّ، توصلني إلى الماضي بكل شذَاه وندَاه، المطر والحبُّ ثنائيةٌ لا تنفك، ولا يكتمل

أحدُهما إلا بحضور الآخر.

مطر وحقلٌ أخضر، وعمرٌ يشكِّله ثلاثةَ عشرَ ربيعًا، وفتاةٌ اسمها ضُحى تجمعني بها أكثرُ من مناسبة، فتاةٌ لا تعرف كيف تقول:(أحبُّكَ)، فتبتسم كلَّما نظرتْ إليَّ تعبيرًا عن ذلك الحب العظيم، فتاةٌ تجعل ذلك الزمن شهيًّا، وهذا الحاضِر الذي يغزوني بمراكِبَ من ظلامٍ لا روْعَةَ فيه وهي البعيدة التي لا تصلُها نداءاتي، لم نكن مدرَّبَين على قول:(أُحبَّك)، فوقَفْنا عند روعة الخُطوة الأولى، وعند دَهْشة الشهقة الأولى، وعند حُدود الارتجاف الأوَّل، ظلَلْنا عند خَطّ البِدَاية، كلٌّ منا كان يأملُ أن يمتلِكَ صاحِبُه قدَرًا من الشَّجاعة ليَعْبُرَ خَطَّ البداية، فانتهتِ البداية بابتسامة وكلامٍ خفيين أرسلَهُ كلٌّ منا إلى الآخر، ما أجمل أن تبتديء القصةُ بابتسامة خجولة، ثم لا يكون لها نهاية ما، قصة تبتديء دونَما كلام، قصة تقولُها عيونٌ ووجهان ضاحكان، قصة يشهَدُ مطرُ الربيع تفاصيلَها جميعًا، ويحفَظُ حقلٌ أخضَرُ وربيعٌ ذاهبٌ كلَّ حدودها.

حشرٌ من الخَرائب

الزمنُ حَشْرٌ كبيرٌ من الخَرائبِ، والأيامُ أرضٌ جرداءُ، أتصفَّحُ الأيامَ يومًا بعد يومٍ، فأُدْرِكُ أنَّنا نعيشُ في غابةٍ كبيرةٍ اسمُها: (العالَم) أؤمِنُ أنَّ من ليس لديه عُصْبةٌ تقتُلُ يكون غريبًا ومنسيًّا ومأكولاً في هذه الغابة، وأنَّ من ليس لديه مخالِبُ وأنيابٌ يفترسُهُ من له مخالبُ وأنيابٌ، حين تكونُ الحياةُ غابَةً لا بُدَّ أن يسكُنَ في داخلك وحشٌ لا يرحَمُ، لتَنْجُوَ لا بُدَّ أن تحمِلَ صرْخَةَ الوُحُوش وتعبُرُ، وأنت الذي تحمِلُ إرثًا مفقودًا من الكبرياء والخُيَلاء، أنتَ الذي تضجُّ في داخلِك كلُّ أصواتِ الرَّفْض، يذهَبُ التاريخُ كلُّه، يذهَبُ في لحظةٍ واحدَةٍ، فتكون حبيسَ تلك اللحظة التي لا تستطيعُ فيها ردَّ الشتائم عن نفسك، ولا تملك – على الأقل– حق الإمساك بيَدِ الجلَّاد الذي يرسُم خارطَة الذُّل والقَهْر على ظهرك، فتستقرُّ بصدرك حسرةٌ لم تعهَدْها من قبلُ، فتشعر أنَّ الفَرَجَ قريبٌ لأنَّك قد وصلتَ إلى قاعِ الذُّلِّ.

– ضُحى... ضُحى... ضُحى.....

أُنَادي في هذا الفراغِ الحزينِ...

أقف في مكانِي الأوَّل، على جُرْفي القديم، معي حَشْدٌ من

الذكريات، لا أحَدَ يفهَمُني مثْلَ دجْلَة، ولا أحَدَ يقرأُ لواعِجَ الرُّوح مثْلَها، أيُّها الصديقُ القديمُ، أيُّها الماءُ الذي دونَ أن نشعُرَ يأخُذُ أسرارَنا، ويحاوِرُ أحزانَنَا.

ضُحى أيتُها البعيدةُ التي لا يصِلُها النداء، دجْلَة تخفِّف من قيود وحدتي واختناقي، تقرأُ تفاصيل غُرْبتي واغتِرابي.

ضُحَى بيني وبينَك رايةٌ سوداءُ لا أستطيْعُ اجتيازَها، بعد سنين من الحُبِّ تكون الرايات السُّود جُزءًا من قصتنا، يقفون بيني وبينها، يفصِلون بين انتظارنا، لماذا كُلَّما كان الحب حقيقيًّا صادقًا زاد نصيبُه من العذاب، لماذا كُلَّما كانت الوجوهُ الباسمَةُ مشتاقةً للقاء تسلَّلَتْ وجوهٌ قبيحة بين أشواقها.

ضحى، أيتها الحبيبةُ التي تفصل بيني وبينَها راياتٌ سودٌ، وقلوبٌ سُودٌ، وحاضِرٌ أسودُ، ولكنَّها جميعًا لا تستطيع إلغاء ماضٍ أبيضَ أنتِ سيدتُه، هل كانت الطيور تعلَمُ أن لقاءنا في ذلك الغروب هو اللقاءُ الأخيرُ، أو سيطول اللقاءُ بعدَه كثيرًا، فغنَّت بكل ما لديها من حُزْنٍ، وبكتْ علينا مثْلَ بكائِها على منازلها.

أتُراك تقفين مثلي الآن على شاطئ دجْلَة، أتُراك مثْلي الآنَ تُحدِّثين الماءَ، وتُعيدين قراءة الماضي للماءِ المُسافر، الشواطئ وُجِدَت لسلام العاشقين، وُجِدت لتبتَلَّ الأرواحُ بها كُلَّما أحاطَ بها الظَّمأ، مَنْ ليس له شاطئ للذكرى

سيخنقُهُ الألم، لا يكونُ عندهُ ملاذٌ إنْ تراكمَتْ عليه الأحزانُ، ومَنْ ليس له نهرٌ للحُبِّ يظلُّ يسكُنُ في صحراءِ التِّيه، على مَقْربة من الشاطئ يقِفُ القتلةُ، يمنَعُون الناس من عُبُورها، من الوصول إلى الأماكن الآمنة التي ليس فيها راياتٌ سودٌ، بين مخالِب الجُوْع والخَوْف والقَلق وانتظارِ الذي لا يجيءُ تُمسين أنتِ، والنهرُ يمد يدَهُ إليك لترحلي عن حصارِك فيجفله رصاصُهم.

مرغمةً تركتِ الدِّيار، تسللتِ منها على خوفٍ وحذَرٍ في ليلٍ مقطوع، دونَ أن تستَطِيعي وداعي، أصبَحَ الصَّباح فتَنَاقَل الناسُ أنَّ والِدَكِ هرَب هو وعائلتُه إلى مكانٍ مجهولٍ بعد أن تسلَّلَتْ إليه أنباءٌ بأنَّهم ينوون القبضَ عليه، يقولون بأنَّهم استطاعوا أن يقبضِوُا على العائلة كُلِّها في طريقِ الهُروب فأعدموهم جميعًا وألقوا بأجسادِهم في دَجْلة، يقولون بأنَّهم استقرُّوا في قلب إحدى المدن، يقولون بأنَّهم ما زالوا تَحْتَ الرايات السود تجثُمُ عليهم جبالٌ من الخوف والرُّعْب، يقولون بأنَّهم أسَرُوهم وأخذوهم إلى سوريا في منأى بعيدٍ عن ديارهم، وأنا أرسُمُ كلَّ لحظةٍ لك نهايةً ما، كلُّ قراءة للموج تخبرني كثيرًا عن أنبائِكِ.

ضحى، أتراكِ الآن تبتسمين كثيرًا كما كنتِ أم أودعُوا في وجهك حزنًا مقيما، وخوفًا لا يزولُ، أُمْعن النظر في وجه دجْلَة، فينتفضُ الماضي مبتلا بندَى الطفولة، يأتيني الزمنُ القديمُ بلا راياتٍ سودٍ، تأتيني ضحى طالعَةً من الماء

بابتسامَتِها الأُولى، ببراءَتِها الدائمة.

لا هُرُوبَ من لَظَى الأيَّام إلا بين يَدَي النهر، كُلَّما أمعنتُ النظَرَ في صفحات الماء ازدادَ الماضي توهُّجًا، تُحاصرني تراكماتُ الأصوات التي لا أُحِبُّها، تخنِقُني النداءاتُ التي لا أستطيعُ أن أستجيْبَ لها، أجوسُ عتمَةَ هذا الزمنِ الذي لا يرحَمُ، أُوْصد بَوَّابةَ الأيَّام المُعْتِمة برفْقٍ وأَهْرُب:

المكانُ دائرةٌ كبيرَةٌ، رجالٌ يُمسكون بأيدي نساءٍ، ونساءٌ يُمْسكن بايدي رجال، الريفُ دبكَةٌ كبيرةٌ ومزمارٌ وغناءٌ بصوتٍ عالٍ يُذهِبُ سكونَ الليل، القريَةُ خاليَةٌ من جميع سُكَّانها، القريَةُ مُوحشَةٌ من جميع جهاتها، ومكتظَّةٌ في هذا المكان وحده، ليس في القرية صوتٌ في هذا الليل إلا في هذا المكان:

عرسٌ من أعراسِ الريف، في ليلةٍ من ليالي نهايَةِ ثمانينات القرن العشرين، تلك السنينُ التي كانت حُدود الوطنِ تُعيد أبناءَها ساكنين من الحرب بانتظارِ أنْ يَسمعوا صُراخنا المَفْجوع، فكانَ الفرحُ حقيقيًّا لأنَّه يُستلُّ من بين رُكامٍ كبيرٍ من الحُزن.

عرَقٌ ربيعيٌّ تلمَسُه نسائِمُ دجْلَة، نسيمُها يختَرِقُ الشَّعْرَ المكشوفَ، الذي لا يُكْشَفُ إلا في طُقُوس الأعياد والأعراس، فيبدو أكثَرَ إثارَةً، دجْلَة تسمَعُ الصوت فتردِّدُه صدىً مُضَمَّخًا بروحها، صدى مبتلاً بطُهْر الماء.

صغيرًا كنتُ، ثم كبُرتُ كبُرتُ وما تعلمتُ دبْكَة الريف، صغيْرًا أنظُرُ إلى تلك الدبكات، أستَمِعُ لغناء الأصابع وهي تشتبك، وهي تتعانق ذلك العناقَ الحميم.

في دبكات الريف، المرأةُ قد تمسك بكفَّيْن اثنتين لرجلينِ مختلفين، وكذلك الرجل، ولكنَّ القلبَ يظلُّ ممسكًا بقلب واحد فقط، أما الآخرُ فهو رقَمٌ ما، صفرٌ على شمالِ تجربة الحب، فالطَرف الذي لا يدخُلُ معادلة الحُبِّ يكونُ حاضِرًا لمجرَّدِ إخفاءِ حوار الأَصَابِع الأُخْرى، أنْظُرُ: هل المرأةُ تضَعُ الرجُلَ الذي تُحِبُّه على يمينها أم على شِمالها، أم كانت خارطَةُ الدبْكَة ترتَسِمُ ارتسامًا عشوائيًّا.

مرَّةً واحدةً دخلتُ طقوس الدبكة، وأنا على مشارف العشرين، دخلتُها دون أنْ أتْقِنَ طُقُوسها وحركاتِها، بلا فرحٍ ولا حُزْنٍ أحرِّكُ يديَّ ورِجليَّ، مثلَ الذي يُجْبَر على العَوْم دون أن يجيدَه، خارطةُ الدبكة تتغيَّر كل حين، وعرَقُ الأصابع يمتزجُ بعرقٍ جديدٍ كلَّ لحظَةٍ، أيدٍ تذهَبُ مكرَهَةً عن أيدٍ، وأيدٍ مكرهَةً تُمْسكُ بأيدٍ.

إحداهُنَّ أمسكتْ بيدِي، كانتْ جميلةً جدًّا، كانتْ تُحرِّك جَسَدَها كُلَّهُ بفرحٍ طاغٍ، وكأنَّها سَمَكَةٌ تسبَحُ ضِدَّ التيَّار، بمقدرَةٍ خفيَّةٍ مُدهشَةٍ تمزِجُ بينَ الدبْكَةِ والرَّقْصِ، ولا يستطيع أحدٌ توبيخَهَا؛ لانَّ الدبكَةَ مشروعةٌ والرَّقْصَ مرفوضٌ، وهي بذكاءٍ مُدْهِشٍ تُخْفِي الرقْصَ في ثياب

الدبكة. العطرُ ورائحَةُ العَرَق النسائيِّ محمولَيْن بنسيمِ ربيع دجْلَة يأتيان إليَّ، أمسكتْ بيدي من جانب الشَّفَقَة، لا من جانب الحُبِّ ولا الرغْبَة، أو لأن خارطةَ الدبْكة التي أُجْبرتُ على الدخول فيها تتغيَّر كلَّ حينٍ، لا أدري، يدٌ راجفةٌ تُمسكها يدٌ واثقةٌ، وقدمانِ تصنعانِ إيقاعًا فريدًا تجاوِرُهما قدمانِ تُشوِّهان قيمَةَ ذلك الإيقاع الفريد المُغْرِي، لمرَّتين كِدْتُ أسقِطُها متعثِّرًا بحذائِها العالي، نظرتْ إلي متبسمَةً بسخريَةٍ ومضَتْ، فشعرت أنَّها تركتْ يديَ بإشفاقٍ مثلَما أمسكَتْها بإشفاقٍ، فأشفقتُ على نفسي، غادرتُ الدبكَةَ لأكتَفِيَ بالتفرُّج على حِوارِ الأصَابع، والتماع الثياب، وارتجاج الأجساد.

– لماذَا خرجْتَ؟، أمَا كنتَ تستمرُّ؟ لم تكنْ داخِلاً معها في دبكَةٍ، وإنما دخلْتَ معها في احتضانٍ حَميمٍ، لم تكن أصابعُكم وحدَها تشتبكُ، وإنَّما جَسداكما اشتَبَكا.

– ضُحى أنتِ هنا؟

– نعم أنا هنا، كنتُ أنظرُ إليك، ألمْ تقل إنَّكَ لي، أنتَ لستَ لي، أنتَ لها.

– لا تكوني مجنونةً، أنا لك، لا تثيري أعيُنَ الناس.

– تصورتَ أنني لم أجيء، ففعلتَ ما يحلو لك، سأتركَكَ... سأهجركَ... أكرهُكَ...

– ضحى أحبُّكَ...

الناس منشغلون بفرحهم، والدبكة يعلو صوتُها حينًا ويهدَأُ، ودجْلَة لا تملُّ من استقبال الصوت وإهداء الصدى، وضُحى وجهٌ صامتٌ ودمعةٌ ناطقةٌ، احتشد في وجهها كلُّ حزن العالمين، اقتربتُ منها، أنظُرُ إلى وجهها، غاضبةٌ بالفِعْل لأنَّها تُريدُني لها وحدَها، تخافُ عليَّ من دفء أصابِع النساء، تخشى علي صدري من عبَقِ امرأةٍ أُخرى، لا تريدُ أن تدخلني ذاكرةُ امرأةٍ ما.

لم تطاوعها قدماها على الذهاب بعيدًا، تريد أن تُريني حزنَها وغضبَها، تريدُ أنْ تُعبِّرَ عن حُبِّها بالحُزْن، وتقولَ لي: (أُحبُّكَ) بدمعةٍ يشهدها ليلُ الربيع، لم تكن أعيُنُ الناس تسمح لي أن أشرَحَ لها موقفي كُلَّه، وأقنعَها أنني لم أكن راغبًا بالدخول في طقوس الدبكة، وأنَّ أصابعي مثل قلبي كانت جامدَةَ المشاعر بين أصابع تلك الجميلة، من خلال الأضواء الشاحبة أطالِعُ وجهها، اكتفينا بالصمت الذي ما زِلْنَا متدرِّبَين عليه كُلَّما اشتدت المواقف، أدركتُ حينها أن الحُزْنَ يضيءُ وجوهَ النساء، وآمنتُ أن الحزن الحقيقي يستطيع أن يحملُ معه ألفَ كلمة من كلمات العتاب، ما عدتُ أسمعُ الغناء العالي الذي اشتدَّ، فقد أصغيتُ إلى صوتِ حزنها وحدَه.

نهرُ الحب، نهرُ الحياة، نهر الذاكرة، لا ينسى أصدقاءَهُ، وقفنا على طَرف الدبكة، أقرب الناس منه، نهرُنا الكريمُ يضاعف من نسيمِه، يُهدي لوجهها كثيرًا من النسيم،

نسيمٌ هادِيءٌ يلمس وجهًا احتشد فيه حزنٌ عاصفٌ، نسيمٌ باردٌ في ليلةٍ من ليالي ربيع الريف يلمسُ قلبينا قبل أن يلمَسَ جسدَينا، أطالعُ وجهها وهو يستقبلُ الهواءَ، غيومُ الحزن تتلاشى شيئًا فشيئًا، الرِّضَا يبدو أوَّل ما يبدو على العينين...

يااااااه.... يا نهري القديم، كيف اهتديتَ إلى أحزانها، وكيف من أجلِها وحدَها ضاعفتَ من هوائك، لم أكلِّمْها، تركتُها وحدَها لسفرِها مع الهواء الندي الذي أسكَنَها في الذاكرة، تركتُها تسافِرُ إلى أماكننا الأولى، تركتُها ترشُّ الماء على وجهي وتهربُ، النهر أخَذَها إليه، فتح لها أبوابَ الزَّمن، جعلَها تُبْصر في لحظة واحدة مواطنَ الذكرى معي، فآمنتْ أن ذاكرةً تمتلك هذا الرصيدَ من الحب لا يمكن أن يُلْغِيَها موقفٌ عادي من الخيانة، ماذا لو لم يزُرْنَا هواء دجْلَة في تلك اللحظة، مَنْ سيُذهب أحزانَها، إنه نهرٌ يمتلك كلَّ لغات الحُبِّ، وكلَّ أصواتِ الغَرام.

أنظرُ إلى وجهِهَا وقد ذهبتْ عنه آخرُ غيمةٍ من غُيوم الحزن.

– ضحى... أُحبُّكِ.

– فتقول بكل دلال الأُنْثى: إن شاءَ الله تموت.

– موافقٌ، إذا كان بحُبُّكِ.

يشتدُّ عناقُ الموج، ويزدادُ عطش السواقي للماء، الموجُ يطهِّرُ الموج، النهر مساحةُ السلام الباقية، وحديثُ الحياة الذي لا يكُفّ، النهر قصيدة يكتبها الهديرُ والهديلُ في وقتٍ واحدٍ.

تصرُخُ الأماكن صراخَها المفجوع، وتُلقي الشوارع ضجيجها المقيت دفعةً واحدة، فتنزوي الروح جِوار الماء، تستسلم للصفاء، وتلجأ للنقاء، كان الجسر يربط بين طرفي المدينة، هو الجَسَدُ الوحيدُ الذي يربِطُ بينهما، فسقط على ظهر النهر، سقط على جسد الماء، فاختلطتِ النارُ بالماء، الروعُ يهاجم سكَّان الماء، فتهربُ الأسماكُ بلا هُدى، تفزَعُ في لحظة الانفجار الكبير، دجْلَة لم يعدْ يحويها لِمَا أصابها من الروع، تغادِرُ منازلها، تأوي إلى الأبعاد العميقة، الجسورُ شرايينُ المدن، فهذا هو الشريان الوحيد للمدينة فلماذا قطعتُموه؟

كان القدماء يظنون أن دجْلَة نهرٌ ينبَعُ من الجنة، فأقاموا حضاراتِهم قُربَه، وأطلقوا أناشيدَهم جِوارَه، أقاموا شعائر الفداء فيه، وألقمُوا ماءَه جسدًا طاهرًا مثلما فعلَ المصريون مع النيل، هُنا في هذا المكان، في قلعة آشور في الشرقاط كانت تُقام طُقوس الفداء، دجْلَة قد يتخطَّى شواطئَه ويعبُرُ أماكنه، ولا يعلم الناس متى يفيض وإلى أين سيتوقف ماؤُه، فيغمُرُ الزروع والبيوت، ويُشرِّد الإنسان، لكنَّه حين يعود إلى هدوئه الأول، يلجأُ إليه الناس من جديد، فينسَوْن

غضبه الماضي وهم يرون جريانَه الهاديء، بيديه أدواتُ الرضا، يعلَمُ كيف يُصَالح الإنسان، يفتحُ صفاءَه للأجساد السُّمْر التي مسَّها الصيف، فتنتفضُ من جديد عامرةً بالرضا.

النهر حين يدهَمُه الغروب يحاولُ أن يمنحَ لأعيُن الناظرين جمالَه كلَّه قبل أن يحولَ الظلامُ بينَه وبينَهم، أسكتَ الحطَّابون غناء الطيور، ومحَوا كلامَ الشجر، فبقي النهرُ أجرَدَ، لا يستطيع الناس أنْ يُغَنُّوا حين يستثيرهم للغناء؛ لان رصاصَ القاتلين بالمِرْصاد، دجْلَة وحدَه الذي لا يستطيع القاتلون إسكاتَه، فما زال يهدي أناشيدَه للشاطئين، ما زال يحدِّث نفسه عن أصدقائه الغائبين، يتلو قصائد الحب والسلام على الرغم من جحيم الأرض...

وحدَها دجلةُ لا تموتُ..

ليلٌ ساكتٌ من كلِّ مَكَانٍ

- (أنْعلْ أبُوهُمْ)... كلابٌ... سفلةٌ... مجرمون... قتَلة... بهائم... وُحُوش... زُناة...

- إسماعيل يكفي، شاطئ الغروب يردِّدُ الصوت... سيسمعونَك... سيقتلونَك..

- لا تخف، فهذا شاطئي أنا، لن يبوحَ بأسراري، ولن يدُلَّ عليَّ.

- من قال لكَ إنني هنا؟

- لم أكن أعلم، لكنَّها فرصةٌ طيبةٌ أن ألتقي بصديقيَّ اللذين أستطيع أن أبوحَ لهما بكل شيءٍ، أنتَ ودجْلَة.

- (خَطيَّة)، لماذا تسُبُّ الناس، إنهم مساكين طيبون، لا يستحقون الشتيمة!

نظر إليَّ وهو يعلم أنَّني أستثيرُه لأُخْرج ما بقي في صدرِه من شتائِمَ.

- تصوَّرْ، إنهم يقتلون الناس بلا ذنبٍ، لم يسلم من وحشيتهم أيُّ شيءٍ، حطَّموا الآثارَ، وأفزعوا الحضاراتِ وهي في بهائِها القديم، فجَّروا بيوتَ الله تعالى، فجَّروا بيوتَ الناس، عبَثُوا بصفاء أيامنا، أمسكوا الدروبَ جميعًا، حتى

الهروبُ لمن في جيبه حفنةٌ من مال لم يعد مُمْكنًا، أكادُ أختنق، أيمن إنني أختنِقُ، هذه الأرضُ صارت ضيقةً، لستُ أدري ماذا كنت سأفعل لولا دجْلَة، كُلَّما أتيتُ إليها منَحتني زادًا من الأمل، وأمدَّتني بشيء من الروح التي أتزوَّد بها إلى اللقاء الجديد.

- المعادلة معهم واضحةُ النهاية، إما أن تقتُلَهم أو يقتلوكَ، هذه الأرضُ على اتِّساعها لا يمكن أن يجاوِرَ فيها الإنسانُ ذئابًا، كذلك الأمرُ معهم، لأنَّ فلسفَةَ المُلْك والحُكْم عندهم قائمةٌ على إرهابِ الأرض، والمجد عندَهم لمن يقتُلُ كثيرًا من الناس.

تُعلنُ الشمسُ انطفاءَ النهار، وتستسلمُ الأرواحُ لليلٍ جديدٍ، الطريقُ بين دجْلَة والمدينة خاوٍ يلفُّه الخوفُ، وهم مثْلَ الذئاب لا تعرفُ متى يهجمون، وكيف يغدُرون، المدينةُ كلُّها تغفو مع غياب الشمس، يأوي الناسُ إلى منازلِهم مثلَ الأحياء الضعيفة في الغابة.

عُدْنا أنا وإسماعيل نجرُّ من جديد خُطى الخَيْبَة، أنظرُ إلى وجهِهِ الذي يشتاقُ للهروب، وأنظرُ في الوقت ذاتِه إلى جَيْبي الخالي فنستسلِمُ لمحْنَةِ الفَقْر، نجرُّ خُطَى الرُّجوع لليلٍ كئيب، في طريقِ العودة نسكتُ أكثَرَ ممَّا نتكلم؛ لأن الحديث عنهم، فيؤلمُ كثيرًا مثْلَ مَنْ يفتَحُ جروحَهُ فلا يَرَى منها إلا ألَمًا ودَمًا.

– أيمن، هل صحيحٌ أن الحياة لِمَنْ يستحقُون الحياة، وأنَّ الحياةَ بالفعل لعُشَّاقها، وهل عَلَى هذه الأرض ما يستحقُّ الحياة؟

– أجل، فالذين سَعَوا إلى إعمارها ما زالوا محفوظين في ذاكرة الزمن، حتى وإنْ رحلُوا، أما الذين يحملون مَعَاولَهم لهدْمِ بُنْيانها، فهُم خارجَ معادلة الحياة، خارجَ حدود الإنسانية.

نودِّع بعضَنا بأسى عميقٍ؛ ففي زمن النكبات الكبرى يكونُ للقاءِ والوداع طعمٌ آخَرُ، فالعَدُوُّ حينَما يطلعُ من تحت أقدامنا، من أعماقِ ليالينا، من وضَح نهاراتنا، حينَما ينظُرُ إلى الباقين جوارَه أرقامًا مُؤَجَّلَةً للموت، حينَما يفعَلُ ذلك كلَّه يكون بقاءُ الأرواحِ حتَّى الصباح مكسَبًا يُنْتزَعُ من مخالب الفجيعةِ الكَائنة، يكونُ بقاءُ الأنفاس حتى تَغيبَ شمسُ النهار المكرَّر إنجازًا آخَرَ، فلا يقف بينك وبين الموت إلا فتوى مؤجَّلة.

أسترجع غروبي أنا وإسماعيل حينَما عدنا من النهرِ، من إرثِ السلام الباقي، يَمْشي ببطء وتثاقل عجيبين، كأنَّه وحدَه معنيٌّ بحمْلِ هُمُوم العالَم، لا يحبُّ الكلام إلا مع النهر، فيمتليءُ غيظا ثم يجيء ليحاورَه، لقد استطعنا أنا والنهر أن نستلَّ شتائمه كلَّها حتى لا يبوحَ بها في مكانٍ آخَرَ فتؤدِّي إلى مقتلِه.

يتوهَّج الماضي، ويُشرق الزمنُ البعيدُ في الذاكرة كلَّما أسرفَ الحاضرُ بظلامِه، فنؤمنُ أن البقاء للفرح، والخلودَ للحب، حكاياتُ الماضي، وأمطارٌ هادئةٌ تعبر إلينا من بعيدٍ، تغسلُ الدخان عن شُرُفاتنا.

أيُّها القاتلون، ارفعوا بنادقَكم قليلاً لنستطيعَ الهروبَ إلى الماضي:

أشتاق لدشداشتي العتيقة التي صاحَبْتُها كثيرًا دون أن أتذكَّر الآنَ لونَها، أشتاق لغُبار الطَّريق، لشجَرِ المسافات، للهديل الذي يأتي من أكثرَ من مكان، أشتاقُ لضُحى، الفتاة التي جمَعني بها أكثرَ من مرَّةٍ نهرٌ مسافرٌ للجنوب، ضُحى: في أي مكان أنتِ الآن، وفي أي كهْفٍ من كُهُوف البقاء، وفي أي زاويةٍ من زوايا النسيان، في أي مساحَةٍ من مساحات الانتظار، تأتين إليَّ من سَراب الأيَّام.

أركنُ إلى ليلٍ ساكتٍ، ليل غادَرَتْه الكهرباء، تنتفي وظائفُ الأشياء، أُشاطرُ الجدارَ صمتَه، والأبوابُ موصدةٌ خوفًا من القادم، أسكَتوا كلَّ شيء، الهواتفُ بلا شبكاتٍ فهي الأخرى تأبَى أنْ تتكلَّم، بقيَتْ لنُطالع بها خِلسةً صور الماضي، انقطعت أخبار الأحبَّة.

الزمنُ حصارٌ من الرُّعْب حين تكونُ الأسلحة بأيدي السفهاء، الزمنُ حصارٌ من الرُّعْب حين تظلُّ الجُثثُ المُعلَّقةُ مُعلَّقةً على المشانق دون أنْ نستطيعَ فعْلَ شيءٍ،

حفنةُ الصبر المتبقية تنفَدُ، فتكونُ مُستعِدًّا للغضب والصُّراخ والجنون لأتفه الأسباب، تغزُوك الخيبةُ من كل جانب وأنت تبصِرُ أنَّ البقاء للأقوى وليس للأصلح، وأنَّك إنْ أردتَ أن تبقى لا بد أن تقتُلَ، ترحَلُ بعيدًا بعيدًا مع الزمن، تعود إلى طفولتك وطفولَةِ النهر.

ترتدي دشداشتك العتيقة وتركضُ في ترابِ الدروب فتعودُ كليلاً على عجلٍ، تعود إلى واقعك المُرِّ، فالرحيل عن الواقع خيانةٌ كبرى، خيانةٌ لدم الشهداء، خيانةٌ للأجساد المُعَلَّقة على المشانق، للأرواح الراقدة في السماء، خيانةٌ لدُمُوع الامهات، خيانةٌ لأنينهنَّ المكظُوم دون أنْ يستطعْنَ إعلان الحزن، وإظهار الفجيعة، لا بُدَّ أن تبقى هنا في هذه الأرض شاهدًا على أعتى منعطِفٍ من منعطفات انكسارها، كم من مساحات الفرح تحتاج هذه الأرض لتغسِلَ عنها أحزانَها المتراكمة، وأيَّ مقدرة من الضحك تحتاج هذه الوجوه لتمحُوَ آثار الدموع عنها، وكم من قصص العشق يحتاج الناس ليغادروا حكايات القَهْر والظلم والروع.

الليل يضيقُ على الأجساد النحيلة، والصباح شيءٌ معادٌ لا جديدَ فيه، تتشابه الأيام والليالي، وتتَّحد القصص نحو نهايات واحدة هي الانتظارُ القاتلُ، أسمع من بعيد، من خلف ضبابِ الأيام أصواتَ من رحلوا في الظلام المحيط، في الدروب الموصدة التي تجعلُني في زاوية نائية قصيَّة عن العالم، في هذا السكون أفتحُ شهيَّة القلب، أُلِحُّ على

الذاكرة، رحلوا دون أن تبتسم عيون الزمن بوجوههم كما يريدون، أمرُّ على المقابر، مقابِرِهم، بيني وبينَهم خُطى قليلة، لكنَّها المسافة بين الحياة والموت، لن تستطيعَ تلك المقابرُ بكل ترابها القاحل أن تحجبَ ابتسامتهم عني، أراهم يبسمون وهم هناك في الغياب، أقفُ وجهًا لوجهٍ بانتظار الذي لا يعود.

بعدما كانت مدينتُنا مأوى للمهاجرين والمهجَّرين وملاذًا للجائعين، وموطنًا للخائفين، بعْدَ هذا كلِّه تكون نساؤنا نازحاتٍ عن الديار، ليقفْنَ طويلاً على مداخل المُدُنِ الطاردة، ذهَبُ النساء يُبَاعُ في الأسواق، وخواتِمُ العرس مصحوبةً بالدموع تودِّعُ الأصابع البيض، النجاةُ من الموت، الخلاصُ من الوجوه الحاقدة التي تترصَّدُ الإنسان، هذا كلُّه يكونُ الحلمَ الوحيدَ، حُلِيُّ المرأة هي الذكرى، هي تاريخ المرأة التي تتزيَّنُ به، هي أجْلى صورة من صور الانتماء إلى التَرَفِ، فحين تُباعُ الحُلِيُّ تكون هذه الأشياء قد بيعَتْ جميعًا، أصابعُ بلا حُلِيٍّ، وأيدٍ لا تسمع فيها حوارًا للأساوِرِ.

أيها الليل الساكنُ، ما لم يكن مألوفًا صار مألوفًا عاديًّا، أصواتُ الرصاص التي تخترق السكون طائفٌ من المشهد الليلي، يطيشُ الرصاص من زوايا الليل جميعًا دون أن تدري إلى أينَ يذهَبُ، وأين يستقِرُّ، وتظلُّ الطيور تَفْزَعُ من الرصاص على الرغم من تكراره؛ لأنها ليستْ معنيَّةً بالحرب، رصاصٌ وراياتٌ سود تحاصر المكان، فلا مهربَ

إلا إلى الماضي. تنظر إليهم تعلوهم راياتهم السود وهم بكامل حِقْدهم وقُوَّتِهم، ولكنْ على الرغم من ذلك تؤمِنُ أنَّهم زائلون، فلا يُمكنُ أن يظلوا بين عاصفَةٍ من الغضب، تُدْرك أنهم ماضون نحْوَ نهايَتِهم؛ لأنَّ الأرضَ التي يسيرون عليها تلعَنُهم.

حين يخيِّمُ السلاح على مشهَدِ الأرض يكثُرُ الحديث عن قصص الحب القديمة، يعيش الناس مع النساء الذاهبات، يكسرون قيد هذا الزمن بحب قديم، لن يصادر القتلةُ قلوب العاشقين، ولن يستطيعوا محو ذاكرة عشق القرى، نار الحرب تجتاح الأجساد الناعمة لولا أمطار الحب، لولا قاموس الحب لكانت اللغة هي الأخرى أداةً من أدوات الرعب.

لمَّا كانت ضُحى تقول لي: (أحبُّكَ)... كنتُ أمضَغُ حروفَها حرفًا حرفًا، وأمسُّ بيديَّ نعومة الكلمات، وأحتضنُ دفءَ العبارة، أتذوَّقُ بطَعْمِ حروفها حلاوَةَ الحياة، للأيَّام صحَوةٌ لا بُدَّ أن تأتيَ، وللأماكن أمَلٌ لا بُدَّ أن يُشْرق وإن امتدَّ الزمن.

الهروبُ إلى رَصَاصَةٍ في الجَبين

القِصَص في زمَنِ الحُروب والنكباتِ الكُبْرى يتناقلُها الناسُ على عجلٍ، خصوصًا تلك القصص المُحْزنة الموجعة، لأنَّها المصيرُ المشتركُ، هي النهايةُ المؤلِمَةُ التي تنتظرُ الناس، ولكنَّ بعضَهم سبَقَ بعضًا، الأبرياء المظلومون يسقُطُون في قَعْر النَّكْبة، يكونونَ صفحةً من صفحات الغيابِ الجماعيِّ، حينها تشعُرُ أنَّ بعضًا من جسدِكَ يسقُطُ، وأنَّ الموتَ التدريجيَّ يتسلَّلُ إليكَ.

يهرُبُ الناسُ جماعاتٍ وأفرادًا خلسةً في ليلٍ منذورٍ للخوف، في ليلٍ نجومُ الأمل فيه قصيَّةٌ بعيدةٌ ولكنَّ الناس تسعى إليها، والقتلةُ مثْلَ الذئاب يجوبون الليل، مثْلَ الوحوش لا يُعْييهم التربُّصُ، ينشرون قناصَتَهم هنا وهناك.

خُطى الأطفال تجوس الظلام بحذَرٍ عجيبٍ، وأنفاسُ النساء تتردَّدُ بخوفٍ مذهِلٍ، تدورُ في رؤوس الرجال في اللحظة الواحدة مئاتٌ من النهايات المرعبة، العوائلُ الهاربة لا تمتلك مقدرةً كبيرةً على التعامل مع ليل الهروب الخائف، ولا تجارِبَ لديها مع دروبٍ لا يعلمون نهايَتَها، تختَصِمُ النهاياتُ في مَدَيَات الانتظار، ولا سبيلَ للإمساك

بلحظةِ الفرح الهاربَةِ، لا لقاءَ إلا تحتَ القمرِ البعيْدِ في نهاية الطريقِ، ولا انتظارَ إلا تحْتَ غُيُومِ الرَّبيع.

في ليلةٍ تكاثَف ظلامُها أكثَرَ ممَّا ينبغي، وتراكبتْ غيومُها من أكثَرَ من جانِبٍ، خرجتْ إحدى العوائل تجوسُ ظلام الليل، نأتْ بنفسها زيادَةً في الحذر، عائلةٌ صغيرةٌ لم يعد يحتويها ليلٌ كبيرٌ، ثلاثةُ أطفال وأبَواهُم، يُغْريهم الهربُ عن الرايات السود، ويمنحُهم الرحيلُ عن الوجوهِ الكالحة الحاقدة مزيدًا من الإصرار على السير، الخوفُ يجعل الأطفالَ متمسكين كثيرًا بوصايا الأبَوينِ، فلا يتكلَّمُون ولا يبكون على الرغم من رُعْب الظلامِ ورَصَاصِ القَتَلة الذي يقطَعُ سكون الطريق، يتركون بكاءَهم في داخلِهم، ويتركون دموعَهم تَهمي في جوف الأرواحِ الراجفة، ينتظرُهم على ضفافِ دجْلَة قاربٌ صغيرٌ، أصواتُها تُسمَع من بعيد، ترحِّب بالقَادِمين، تمنَحُهُم شيئا من الأمَلِ، يحملُهم قاربُ الهروب، ذاكرةُ النهر تأخذُهم للحظة ما بعيدًا عن هذا الخوفِ، النهرُ دافيءٌ في ليل الشتاء.

صاحبُ القارب يعلَمُ طريقَ النَّهْر، أوصلَهم إلى الشاطئِ الآخَرِ بسرعَةٍ عجيبةٍ، دجْلَة مساحةٌ من الأمن، وفرصةٌ للذكرى، لم يسمح الليل لهم فرصةَ قراءة وجوههم على صفحات الماء، لكنَّ أشواقه وصلت إلى أفئِدَتِهم، أشعَرَهم صوتُ النهر أنَّ الحياة ليست لأصوات الرصاص وحدها، الماءُ المسافر في الليل أنبأهم عن حرية الإنسان، وأنَّ

الأشياء إذا أرادت السفر لن يُمْسكها أحدٌ، تزوَّدوا من النهر بأملِ الوُصُول إلى مرفأِ النجاة.

ودَّعوا قاربهم الصغير الذي احتوى كثيرًا من الأمل، وعادوا يجوسون ظلامَ الخوف، الأمْنُ الذي زوَّدهم به النهر يهرُبُ شيئًا فشيئا.

القاتلون مثل الذئاب يجوبون الليل بلا مَللٍ، مثل الكلابِ حين تستأسِدُ على فريسةٍ ضعيفةٍ، يحيطون بالعائلة على غفلةٍ من هدأة الظلام:

- ارفعوا أيديَكم.

ليس بأيديهم سلاحٌ أو مقاومة إلا أن ينضمَّ بعضُهم إلى بعض وكأنَّهم جسدٌ واحدٌ، الأطفالُ يلجأون إلى أحضان الأبَوين ظنًّا منهم أنَّها الملاذُ الوحيدُ الآمِنُ في هذه الدنيا، يُطْلق الدواعشُ رَصاصَهم فوق الرؤوس فيجثو الجميع على الأرض، يرسِلُ داعشيٌّ ضوءَ السيَّارة المَرْكونة جانبًا على الوجوه الخائفة، يختلطُ بكاء الأطفال، تؤجِّلُ الأمُّ صرخَتَها خوفًا على قُلُوب أبنائها، القلوبُ الصغيرةُ تكاد تخرُجُ من الصدور الناعمة، بكاؤُهم ينوءُ الليل الشاسِعُ بحَمْل أحزانِه.

لا طائِرَ في السماء ينشُرُ بشرى للسلام أو نشيدًا ما لبكاء الطفولة، ولا دجْلَة تستطيع ان تتخطَّى شاطئَها لتُسافِرَ بهم بعيدًا.

يقتربُ منهم داعشيان مدجَّجان بالحِقْد والسلاح:

– ها... تُريدون الذهابَ إلى دولة الكفر، بالتأكيد أوَّل شيءٍ يفعلُهُ هذا الزنديقُ ينتمي إلى الجيش، ثم يعودُ لمحاربتنا.

– أبدًا والله، لا شأن لي بالجيش والحَرْب، أنَا مُعلِّمٌ، ولكنَّ الجُوْعَ هو الذي أخرَجني من الدار، لم يبقَ عندي لُقْمةٌ أُطْعمها لهؤلاء الأطفال.

– نأخُذُهم إلى الحَجِّي، ينظرُ بأمرِهم.

– لا لا لا، لا حاجة لإزعاجه بذلك، فالفَتْوى التي أصدَرَها واضحةٌ بشأن هؤلاءِ وأمثالِهم.

– ما اسمُك؟

– محمود العُمَر.

– هههه اسمُه يُشْبه اسم الزمخشري المُعْتزلي صاحب الكَشَّاف، سُبْحان الله الزنادِقَةُ يتشابهون حتَّى في أسمائِهم.

– أستاذ محمود!، هل تعلَمُ أنَّ القاضي الشرعي أصدَر فتواه بقتل كلِّ من يُريد الخُروج من دولة الإسلام؛ لأنَّ في ذلك ردةً صريحةً، والمرتدُّ بلا شكٍّ عقوبتُه القتلُ.

– أرجوك، ليس من أجلي، من أجل هؤلاء، ليس لهم أحدٌ سواي، أعدْنِي إلى الدار، وأعِدُك أنني لن أخرجَ منها أبَدًا.

– من أي قرية أنتَ؟

– من إسديرة.

– واي واي... إسديرة قريةُ العُمَلاء...

– حَجِّي، نَفِّذْ...

– إن كانَ عندَك وصيَّةٌ قُلْها عَلى عجَلٍ، لا تؤخِّرنا، قضي أمرُكَ.

– لا تَخَافي، علِّميهم أنَّ الحياةَ لن تنتهي، خُذِيهم إلى مساحاتٍ أُخْرى، لعلَّكِ تجدينَ فيها ظلاً آخرَ، هؤلاء قتلةٌ زائلون، إن قَتَلوا معلِّمَ جيْلٍ سيثور عليهم جيلٌ كاملٌ، أخبري أطفالَنا أنَّهم أصبَحُوا أشجَعَ الخَلْق لأنَّ أرواحَهم ظلَّت عالقةً بصدورِهم وهم يَرَون روحَ أبيهم تُسافِرُ بعيدًا، لن تَموتي أنتِ وأطفالُنا الآنَ في هذا الليل النائي، فقد غشِيتْكُم سحائبُ الموت ونجوتُم منها، ستموتون بعْد أن تشاهدوا انتصارَ الحياة على هذا الخراب، لا تخافوا؛ لأنَّ الخوف لمن يقتُلُ لتستمرَّ حياتُه، لا لمن يجوسُ الظلامَ بحثًا عن الحياة، هؤلاء القتلةُ سيَعْلَمُون أن كلماتِ المعلم وحروفَه التي خطَّها بطباشيره الأبيض لن ينهيَها رصاصٌ أسودُ قادمٌ من ليلٍ ساكتٍ، لا تخافي، اعتني بأطفالنا جيدًا، حدِّثيهم كثيرًا عن الحياة، ولا تعودي بهم إلى ذكرى ليلٍ ساكتٍ، ورصاصٍ لا أدري من أي صوب سيجيء...

الإرهابيون يصنَعون نصرَهم بما ينشرون من خوف في صدورِ الناس، لا يُمْهل القاتلُ قتيلَه فرصةَ توديع الأحبة، ولا يمنَحُهُ وقتًا ليضمَّهم إلى صدره حتى يتحسَّسُوا أشواقَ قلبه قبلَ أنْ يسكُتَ، ولا يصبِرُ حتى يرى مليًّا لوعَةَ الوجوه.

– بابا لا تخافُوا، بابا لا تخافوا...

يتخطى الوحشُ بكاء الأطفال، يعبُرُ صوتَ امرأة غلَبَها النحيبُ فلم يعد يُفهَم من كلامها شيءٌ، بهدوءِ وحشٍ متمكِّنٍ من فريسته، وبحقْدِ ذئبٍ متسلِّطٍ، يُخْرج مُسدسه فيضعُه على جبين محمود المعلم فيُرْدِيه قتيلاً.

لا مسافَةَ بين الرَّصاصة والجبين...

ولا لحظَةَ بين صوت الرصاصة وشهقَةِ الموت...

تسكُتُ كلُّ قيَمِ العالَمِين، فلا يظلُّ إلا عويلٌ لأربعة وجوه لم يعد البكاءُ قادرًا على احتواء الفاجع.

يذهبون بسيارتهم ومعهم زهْوُ النصر، تتكوَّرُ المرأةُ على الجسد الذي سافرت عنه روحُه الآنَ، جسدٌ ما زال دفء الحياة كامنًا فيه، جسَدٌ ما زال دمُه دافئًا على الأرض، وروحُه في طريقها إلى السماء، الدمُ الدافيء يتخلَّلُ الأصابعَ الباردة، يذهبُ القتلة بعيدًا فيظلُّون وحدَهم، مستسلمين لنهايَةٍ كانت أبْعَدَ من أحلامِ النهر، لم تكن ذاكرَةُ النهر تحفَظُ ظلمًا مثل هذا الظلم، أو غدرًا مثل هذا الغدر الذي تُزجيه اليابسةُ، يسكُتُ الجسَدُ بعد ان تكلَّمَ بلُغاتِ الفاجعة الكُبْرى، يرحلون عن المكان بدمٍ باردٍ بعْدَ ان تركُوا فيه دمًا دافئًا، الأطفالُ يكلِّمون أبًا لم يعد يستطيعُ الكلام، ويتوسَّلون جسَدًا لا يقدر على النهوض.

النهاياتُ العُظْمى تحتاجُ إلى وقتٍ لتُصَدَّق، والمسافةُ

بين الحياة والموت بحسابات الأطفال بعيدةٌ بعيدةٌ تجعلُهم لا يؤمنون أنَّ رصاصةً لا صوتَ لها تستطيعُ أن تمحُوَ صفحَةَ الحياة، وأنْ تحجبَ أحلامَ الأب وطموحَه وعزمَه على بلوغ نهاية السفر.

تصِلُ الرصاصة إلى جبين الإنسانية، تستقرُّ في قلْبِ الأحلام الباقية، رصاصُ الظَّالمين لا يُخْطيء، لأنَّه محمَّل بالحقد، الحقد منذُ كان يدُلُّ على مكامِنِ الأحلام.

تحتضِنُ الأم أطفالَها انتصارًا للحياة، تحديًا لرصاصَةٍ بصمتٍ مذهلٍ تخترقُ الجَبين، تقفُ بعْدَ أنْ لم يعد يُخيفُها شيءٌ، تجمَع بعضَ الأعواد والأشواك والحشائش لتغطِّيَ الجسد، فيعودون من حيثُ جاؤوا، يمشون وأعيُنُهم تختلس النظرَ إلى الخلف، إلى أبٍ ظل وحيدًا مع الليل، أبٍ يطالع أفُقَ الوطن من بين أشواكٍ يابسةٍ، يجوسون ظلام الليل بثقَةٍ، بعْدَ مهادَنَةِ الموت، يشارِكُ الليلُ عيونَ الأطفال بكائيةَ العودة، بكائية الرجوع بأبٍ شهيدٍ وحلمٍ قتيلٍ.

السؤال الذي ظلَّ مُعَلَّقًا على فَمِ الطِّفْلَةِ الصُّغْرى.

- أينَ أبي؟

سؤال يقطع أوردَة المكان.

- أمي (أبوية ليش ما جا معانا)؟

هذا السؤال يُعْيي كل ألسنة العالم.

دماءُ الأب التي بدأت تتجمَّد تزيدُ من عناق الأصابع الصغيرة، يعودون إلى النهر فيشهَقُ شهقةً يردِّدُها الشاطئان، يشعُر النهر بالذنب لأنه منحهم شيئًا من الأمل، وأنَّه أودع فيهم حلمَ الوصول، يرتجف الماء غيظًا، يكتشف بعودتهم شيئا من أسرار البشر، ويؤمن أنَّ الإنسان قادرٌ على تلويث نقاء الأنهار والبحار جميعًا، وأنَّه بقُبْحه سيسلب جمالَ المدى الأزرق.

النهر يستدعي القارب وصاحبَه، يدلُّهما على وجوهِ العائدين.

– ها، سلامات، لماذا رَجَعْتُم؟

فيُسرع النحيبُ ليكشِفَ سرَّ العَوْدة.

صاحب القارب هرَّب كثيرًا من العوائل، وعايَن عن قُرْب ألوانًا من النهايات، فاستطاع أن يقيسَ حجْم الإجرام والحِقْد في صدور القاتلين، فاكتفى بالنَّظَر إليهم ليكتَشِفَ على الفور نهايَةَ الأب، يحمِلُهم القارب في نهر يغشَاهُ الذهول، أمواجُ النهر تكاد تميَّزُ من الغيظ، يحفَظُ الوجوهَ الباكية في ذاكرته، فيمنَحُها ارتجاف الماء حزنا آخر.

يعاتب النهر نفسَه، لماذا كان نهرًا للحب والسلام، يريدُ أن يكون جسدًا من الغَضَب يدخُلُ المَعْركة، يريد أنْ يكون كُتلَةً من النَّار والحَديد، يريدُ أن يكُفَّ عن إرسال أشواقِه للناس، يريْدُ أنْ يُرْسل صواعِقَه، ويبعثَ لُجَجَه على أولئك

الذين يَطْربون على صَليل الصوارم، وأناشيْدِ المَوْت، ونِداء الإبادة الجماعية.

يدعُو النهرُ أصابع الأطفال، يُدخلون أكفَّهم في الماء، دافئًا كان النهرُ في ليلة الشتاء، شيئًا فشيئًا يأخُذُ الدمَ المتجمِّدَ من الأصابع البيض، يُمْسك بأصابِعِ الأطفال وكأنَّه الأبُ العائِدُ من تحت أشواك وأعوادٍ يابسة، يُمْسكها بحنانِ الأُبُوَّة، على الرَّغْم من نقصانهم واحدًا إلا أنَّ القاربَ صار ثقيلاً بما حمَل من شجَنٍ، كُلَّما هوى المجذافُ إلى الماء أرسَلَ إلى الوجوه قطراتٍ من الماء لتَصِلَ إلى نار الألم، فيجْفُلُ الماء وهو يُلامِسُ وجوهًا ظامئة إلى الفرح، وجوهًا أحرَقَها الأسى.

يعاتِبُ النهرُ وطنًا ترك أبناءَه أجسادًا ساكتةً تحت أشواكٍ يابسةٍ، دون أن يلفَّهم بعلمٍ ناصعِ البُطولة، يعاتب النهر وطنًا تأخَّرَ عن المجيء، وطنًا جاء أبناؤه إليه في ظلامِ الليل ولم يشعل النارَ لاستقبالهم، ولم يوقدْ في طريق العودة إليه شموعَ محبة ومشاعِلَ نصْرٍ، يعاتبُ وطنًا لا تقومُ قيامتُه وهو يسمَعُ بكاءَ أطفالٍ وصرخةَ أمٍ وحشرجَة روحٍ في أرضٍ مهجورَةٍ.

- بالروح بالدم نفديك يا.....

متى يسكُتُ هذا النداء، يا أيُّها النشيدُ المنافِقُ الجاهِزُ المعلَّبُ الذي يُتاجَر به في كل زمانٍ ومكانٍ، أيُّها النشيْدُ

الكاذِبُ بشكلِهِ ومضمونِه، فالمنطق يقول بأنَّ الدمَ قبْلَ الرُّوح، أيها النشيْدُ الذي تسلَّقَ به المغمورون أكتافَ الأيَّام، أيها النشيد اليائِسُ العاجِزُ الذي يُلْغي الذاتَ لتكون رخيصةً تحت أقدامِ الآخرين، لتكونَ الأرواحُ والدماءُ سلعَةً رخيصةً يُتَاجِرُ بها أولئك الذين يُثيرُ عرقُ الجماهير الكثيرُ شهوَةَ أكفِّهم بقليلٍ من التصفيقِ.

لا مكانَ لقُبورِ أحبابنا على الأرض...

هم في أرواحِنَا، وديارُهم في قلوبنا، دروبُهم هنا في صباح الحياة، أفراحُهم ستظلُّ كائنَةً معنا، على الرغم من كل القَتَلة وجُمْهور القَتَلة، على الرَّغم من أنصاف القَتَلة الذين سيكونون قَتَلة محترفين حين تتهيَّأُ الفرصة لهم، سيظلُّون على الرغم من كل عُشَّاق رائحة الدم، وتُجَّار رحيْلِ الأرواح.

حُبٌّ لأُسْبُوعٍ واحد

أعبُرُ جسَدَ الوقتِ المُمزَّقِ، أترُكُ للمكان احتراقَه المهول، فحفنَةُ الماء التي في كفيَّ لا تزيد النارَ إلا لهبًا، برفْقٍ أُغلق بوَّابة الزمن، وأتسلَّلُ بحذَرٍ إلى هناك، البَعيد، أظلُّ أمشي حتَّى يتوارى ضجيجُ الأيَّام:

بيتهم يرسو على صخرةٍ عظيمةٍ على الشاطئ، يُقال إنها قديمةٌ قِدَمَ النهر نفسِه، وإنَّ القدماء كانوا يسمونَها: (صخرةَ الغُروب الأخير)، لأنَّ الناظر إلى الغروب يُدهشه المنظر، وكأنَّه الغُروب الأخير على هذه الأرض، فالمنظر يستثير معاني الوداع كلِّها، ويدعو دلالات الرحيل جميعًا، فالمُتأمل في الغروب من ذلك المكان يرى ألوان الشفق تتعانق على صفحَةِ المَاء، يتكسَّر اللون مع الماء بصورَةٍ عجيبةٍ.

بيتُهم القديمُ جزءٌ من الصَّخرة، راسخٌ في مضمونها العتيق، متجذِّرٌ في الغُروب الأخير.

على جدار البيت صورةٌ لقلبٍ كبير، مرسومٌ بشكلٍ ساذَجٍ، قلبٌ كبيرٌ طولُه أكثر من مترين يخترِقُه سهْمٌ طويل، وتحتَه ثلاثُ نُقَطٍ حُمْرٍ، قلبٌ متروكٌ على جدارٍ، لكنَّ نسيْمَ دجْلَة يمنَحُه روحًا فيتفتَّحُ.

أكادُ من مئات الأمتار أسمَعُ نبضَه، وقفتْ وبيني وبينها مسافةٌ ما، ومساحَةٌ أُخرى من الخَوْف أكثر اتساعًا، وقفتْ أمام ذلك القلب الذي يفوقُها حجْمًا، ووضعتْ يدَها عليه، ما كنتُ حينَها مستعدًّا للحُب، بل لم أكن أعرفُ شيئًا عن الحُب سوى تلك المقولة المستهلكة البريئة: (الحبُّ عذابْ... قاتِلُ الشباب)، ولكنَّني حين وضعتُ رأسي على وِسَادة الليل دخلتُ بمُحاولة تفسير ما لا يُفَسَّر، شعرتُ بالأرَق الجميل، أغمضْتُ عينيَّ فارتسمتْ في الظلام لوحةٌ ليَدٍ بيضاء تُمْسك قلبًا أسطوريًا كبيرًا.

لأسبوع كامل ظللتُ أقفُ عصرًا في شُرْفة الدار، وهي كذلك تقفُ عند قلبها الكبير لا تُغادره، ثمَّ مضت إلى مكان آخر، لم تكن ابنةَ الجيران، وإنَّما كانت ضيفةً عندَهم، طفلةً مثلي كانتْ، ولكنَّ قلبَها تهيَّأ للحُبِّ قبلي، فهي التي دَعَتْني للسفر على جناحَي ذلك القلب.

لم أرَ ملامِحَ وجهِهَا بالتفصيل، ولا عرفتُ كيفَ يكون حين تَسْرِي به دماءُ الحبِّ، أكبرتُ صبرَها وهي تظلُّ عصرًا كاملاً تدعوني إلى قلبٍ يخترقُهُ سَهْمٌ.

مَنْ يا تُرَى أطلَقَ سهمَه عليه، ومن أجبَرَه على سفْحِ مُهْجَته؟ هل وصلتْ لواعجُ الحبِّ وسهامه إلى قلبها الصغير، فكانت تقول لي: هذا هو قلبي.

لم تكن ابنةَ الجيران، وإنَّما هي ضيفةٌ عندَهم، كانت

مستعدَّةً للرحيل، لذلك وصَل السهم إلى قلبها الصغير، كانت على رحيلٍ لذلك آثرَتْ أن تترُكَ في المكان قصَّةً دافئةً تذكِّرُها به، أرادَتْ أن تزرَعَ في تلك الأرض شجرةً من الأحلام، أو لعلّها أرادتْ أن تتدرب على الحب لمرحلة قادمةٍ، لتَشْعُر بقيمة السفر مع الأكُف البعيدة.

لماذا غضبتْ ضُحى حين أخبرتُها عن تلك الصغيرةِ الذاهبَةِ مع الزَّمَنِ، دونَ أن أراها مُجدَّدا، حتى ذلك القلب قد محَا المطرُ وأشعة الشمس اللاهبة كثيرًا من تفاصيله، صار نسيمُ دجْلَة يدهَشُ حين لا يبصر ملامحَه إلا بجُهْد، لم يبق شيء واضحٌ إلا قطرات الدم الثلاث، ربما لأنَّ الذي رسَمه ضَغَط فُرْشاتِه كثيرًا على النقاط، أو لعلَّ الدماءَ آخرُ ما يبقى من مشاهد الحياة.

– ذهب القلب، وراح حُبُّ الأسبوع الواحد، وبقيَتِ الدماءُ يا ضُحى.

– أنتَ خائنٌ، فمن خانَني قبلَ أن يعرفني، بسهولة سيخونني بعد ذلِكَ.

– هل تعلمينَ بان لتلك الصغيرةِ فضلاً كبيرًا عليكِ، فهي التي علَّمتني الحبَّ والحَنَان أوَّلَ مرَّةٍ، ربَّما لو لم تكن هي وقلبُها الكبير في الذاكرة لمشيتُ إليك بخُطى فاشلةٍ، لسقطْتُ في منتصف الطريق، لَمَا تمسَّكْتُ بكِ بهذا الشكل، لأنَّني قديمًا ذقتُ مرارة الرحيل الأول.

– لكنها خيانةٌ لتاريخِ الحُب، فالقلبُ لا يُمْكن أن يمحُوَ

آثارَ الوُجُوه التي استقرَّتْ فيه ولو ليومٍ واحدٍ.

– ضُحَى أحبُّكِ.

– أنتَ دائمًا تهرُبُ من ماضيك، لتغلِّفَني بهذا الحاضر الذي لا تُريد أن أبْصِرَ سواه.

– لم يكن ذنبي، إنه ذنبُ (صخرة الغروب الأخير) ذنبُ النهر الذي يفتَحُ شهيَّة الحب منذ الطفولة، كنتُ أرى الشفَقَ الحزين وراءَها، فعَلاقتي بها كانت مسكونَةً بالرحيل منذ البداية، لقد أنبأنا الشفقُ بذلك.

– خائن.

– الخيانة الحقيقية هي خيانةُ الذاكرة.

أعرف أسرار النهر، وأسرارَ غضبِها، وحدودَ دلالِها، أحملُ بيدِي قليلا من الماء، ألقيه على وجهها، فيطفيء الماءُ حُزْنَها دفعةً واحدةً، يبتسم خداها تحت قطرات الماء.

ما أجْملَ ابتسامة الأنثى بعد عاصفةٍ من الحزن الحقيقي، أحاول أن آخذها إليَّ فتهرب مثلَ قُبَّرةٍ خائفةٍ، نقف أمام الماء:

– أخشى أن يكون النهرُ هو المناسبةَ الوحيدةَ لحُبِّنا، أخافُ أن يذوي الحبُّ حين نغادر منبعَه.

– لا تخافي، لأننا حتى إذا غادَرْناه فإنَّه لن يغادِرَنا، سيظلُّ يجري في أرواحِنَا، سيظل يعبَقُ في أعمارِنَا، فلن تكونَ أيامُنَا آسِنَةً.

هل تبقى الأيام في طفولتها الأولى ونقائها القديم، أم ترتدي رِداءَ الزَّمن، أُحاول أنْ أعتِقَ الأيَّام من قُيُود هذا الزمن الذي لا يرحَمُ، لأرى نقاءَها الأول، لأسمَعَ هديلَها القديم، أيتها القُبَّراتُ النائية، أيتها الحمائمُ النازحةُ، يقولون: إنَّ الأسماكَ تعيشُ بلا ذاكرةٍ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ ذاكرةُ الحَمَام راسخةً، لأنَّ الأسماك للأنهار والبحار، والحمائِمَ للأشجار والآفاق والنوافذ، لأنَّ الأسماكَ للصمتِ، والحَمَام للهَديل، هل تصحُّ تلك الأُسطورة التي تقولُ بأنَّ الحَمَام يبكي وَلَدًا قديمًا له يسمى هَدِيْلاً، وما زال البُكاء مُنْحدرا في اللاشعور الجَمْعي للحَمام.

الأسماكُ بلا ذاكرَةٍ لأنها تكتفي بذاكرة الأنهار والبحار، صوتُ الحمام يعبُرُ أسوارَ الزَّمَن ويجيءُ.

صوتُ الحَمَام يحمِلُ معه زمنًا قديمًا، حين تُهْدي عينيك لحمامَةٍ ما في الأفُقِ تكونُ قد تعلَّمْتَ السَّفَرَ الأوَّلَ، تكونُ قد دخلْتَ في بدايات الجُنُون الجَميل، الأسماكُ تطيرُ في الماء، والحمامُ يَطيرُ في المَدَى الأزرق، دجْلَة أسماكٌ وحمائمُ طائرةٌ، الحمامُ يألف آفاقها، يشتاقُ لنسيمها العالي، دجْلَة أسماكٌ تطير، وألوانٌ تسافر في الأفُقِ الصافي، للأماكن طُفُولَةٌ مثل البَشَر تكبُرُ مع الأنسان وتعودُ طفلَةً كُلَّما عادَ جيلٌ جديدٌ، فهل يَرى أطفالُنَا اليومَ للأماكن طُفُولَةً مثلَما كُنَّا نرى، وهل تشارك الأماكنُ تجاعيْدَ الوُجوه التي تنتظر الغياب.

خراب... والأربعون سِرًّا

– خراب، ألم تَمُتْ؟ ظننتُكَ متَّ من زمانٍ.

– لا لا، ما أموت.

– ماذا تفعل وحدَكَ يا خرابُ في شاطئ أجرَدَ، كانت أشجارُ الغرب وعصافيرُها التي لا تتعَبُ تُغْريك بالمجيء، فما الذي يُغريك الآن، غابت الأشجارُ مع الزمن، وانكفَأَ ظلالُها، وغادرت عصافيرُها يا خراب، هل تفهم ما أقول؟

حاولتُ أنْ أعرِفَ ما الذي ظلَّ يُغْريه في النهر، هل يعي من أسراره شيئًا، وهل كان يسمع حديثَهُ أفضلَ مِنَّا، أم لا يُغْريه فيه سوى العصافير والأشجار الذاهبة. تركتُه لوحدَتِه، وبقيتُ أراقِبُ حركاتِه وكأنَّهُ مُمَثِّلٌ يجوبُ لوحدِه خشبَةَ المَسْرح، ظلَّ يجوبُ الشاطئ جيئة وذهابًا، كمن يبحثُ عن شيء فقَدَه، ظهرُه الأحدب، وسنواتُه الأربعون، لم تمنَعاه من السير بنشاطٍ، كان يرفُضُ الاستسلامَ للعَجْز، والركونَ عند الجنون.

سألتُه أكثَرَ من مَرَّةٍ:

– لماذا أنتَ وحدَك يا خراب؟

فيكرِّرُ الإجابَةَ ذاتَها:

– لا لا لست وحدي.

أتصفح الجهات المكشوفة فلا أرى أحدًا، فسَّرتُ كلامَه بأنَّ المجانين ليسوا وحدَهم بالفعل، وإنما معهم جنيَّاتُهم وشياطينُهم!، لكنَّه كل حين يضغط على ظهره الأحدب، لينتصب نحو الشَّرْق، منتظرًا شيئًا ما.

أطالع جهةَ الشَّرْق بإمعانٍ شديد، فتبدو لي نقطةٌ حمراء، تتحرَّك في المَدَى المَكْشوف، يسلِّط خراب النظر إلى تلك النقطة المتحركة، فيعودُ إلى هيأَته الأولى، وكأنَّهُ وجَد الذي ينتظِرُه.

أظلُّ أتأمَّلُه، فأُدْرك أنَّ صفاءَ النَّهْر القديم لم يغادِرْه، يقفُ كلَّ حين متصفحًا المكان، يُنْصِتُ إلى شيءٍ ما، يستردُّ من الجُرْف المُغْبر لونًا أخضرَ قديمًا قد أخفاهُ الزمن، عقولُ المجانين قادرةٌ على استرداد الزمن.

خراب أيُّها الأحدبُ الوفي للأرض، أيُّها الواقف بين الذاكِرَةِ والمَاء، أيُّها المُنتصب بجُهْد بين الماضي والنهر، يذهب إلى الجرف ويعودُ إلى النهر، وكأنَّه يدخُلُ في ظلال الماضي ثم يعود ليُخْبِرَ النهر شيئًا ما، أتأمَّلُه مليًّا فأعلمُ مدى صعوبة اجترار أكثرَ من عشرينَ سنةً.

– خراب، ستتعب يا خراب.

– لا لا، ما أتعب.

على مهل تبدو النقطة الحمراءُ تمشي في المدى المَكْشوف، تأكدتُ على الرغم من بُعد المسافة أنَّها امرأة أقبلَتْ إلى النهر، راحتْ تقترب أكثر، فاتضحتْ مشيتُها، واتَّضَح وَقارُها الأُنْثوي.

كنتُ قريبًا من خراب، ظننتُها ستغادر مكانَنَا، لكنَّها أقبلتْ إلينا، ألقتِ التحيَّة واتجهتْ نحْوَ خراب.

– خراب، لنذهبْ إلى البيت.

– لا لا، أريدْ أشوفْ العصافير.

يثب الماضي بكُلِّ عَصَافيره وظلالِهِ...

امرأةٌ بكلِّ شَبَابها، ترتدي ثوبًا أحمرَ ريفيًّا تجبرُ الذاكرة على الرجوع إلى ماضٍ ذاهبٍ، تجبرُ الذاكرة على تخطِّي الزمن، للوقوف على جسَدِ المكان ذاته مرَّةً أُخْرى.

أرُدُّ أوَّل العمر إلى آخره:

– ألستِ هدَّاوة؟

فتُجيب بابتسامةٍ مدهشة:

– لا، لستُ هدَّاوة، أنَا هدى.

– ما أشبهَ اليومَ بالبارحة، لم تذهبْ إلا العصافيْرُ وأشجارُ الغرب، ولم تذهب إلا هدَّاوة، وجاءت هُدى.

– على العكس تمامًا، لقد تغيَّر كل شيء، لم يبقَ شيءٌ في مكانِه الأول، لقد بعثرتِ الأيامُ أشياءَنا الأولى، لم تحفظ

السنينُ إلا خرابًا والنهر، فلم يتغيَّرَا أبدًا، خراب ما زالت له أحلامُه، والنهر له أحلامُه كذلك، فلا يصبر إلا أن يزورَ صاحبه، لعلَّ كلا منهما يريد أن يُشارك الآخَرَ بسَفَر الأحلام، وزواجِ الرُّؤَى العابرة لحُدود العقل.

– وأنتِ منذ متى تستسلمين خلْفَ أحلامِه، وتنقادين وراءه بحثًا عن عصافيْرَ غادرتِ المكانَ.

– منْذُ أن رأيتَ دمعتي على وجهي الصغير، قبل أكثَرَ من عشرينَ سنةً.

– يااااه، ما زلتِ تذكرين.

– كيف لا أذكُر.

– لكنَّ الغريب أنَّني لم أركِ منْذُ ذلك الزمن، حتى كدتُ أنساك وأنسى خرابا، أين كنتُما طَوال هذه السنين؟، ظننْتُ أنَّكما متُّما مَعا، أم أنكِ لا تموتين مثلَ أخيك خراب؟!

– لقد غادَرْنا القرية منذ ذلك الحين، لم يعُدْ أبي يصبر على إصرار خراب زيارَةَ النهر كُلَّ يوم، فحين نمنعُه يتحوَّلُ إلى وحْشٍ، ويكونُ عدُوًّا للجميع، فأصبح أبي يخشى عليه من النهر، بل يخشى عليَّ أكثرَ منه، فلا يرضى أنْ أنزِلَ كلَّ يوم إلى الشاطئ بصُحْبة مجنونٍ، وقد راح أطفالُ القرى يضايقونه كُلَّما نزَل إلى الشاطئ، فرحَل بنا أبي إلى قرية أخرى، بعيدةٍ عن النهر. وفي الأيَّام الأولى من نزولنا في تلك القرية تحوَّل خرابٌ إلى وحشٍ هائجٍ، فكان يخرُجُ من

الدار على الرغم من الجميع، يبحثُ عن شيءٍ ما، فلمَّا أعياهُ البحثُ دون أن يظفَرَ بشيءٍ ما تملَّكَه اليأسُ، فلم يعد يخرج من الدار أبدًا، وكأنَّه آثَرَ أنْ يسجُنَ نفسَهُ بعيدًا عن كل شيء.

أعترف لك بأنَّ خرابًا أتعبني كثيرًا، فمن أجْلِه تخلَّيْتُ عن كُلِّ شيءٍ، ولكنَّنِي لستُ نادمَةً على ذلك، فقد علَّمَني أنْ أُحِبَّ النهر، ودلَّنِي كيفَ أسمع أحلامه.

لقد مات أبوانا في تلك القرية التي ليس فيها نهرٌ، ولم يبقَ في الدار الغريبة إلا أنا وخراب الذي لا يخرج منها مهما حدَث من أمر خارجَها، فلم أعد أحتمِلُ العيشَ سجينَةً معه، فلا يكادُ يكلِّمُنِي، كنتُ أقرأُ في عينيه عِتابًا طويلاً، يريدُ موطنَه الأوَّلَ، يريدُ أنْ يقف مُجدَّدًا على أسرارِه الكامنة هنا، فآثرتُ أنْ أعود مرةً أخرى إلى هذا المكان، ولكنَّنِي فوجئْتُ حين وجدتُه أجرَدَ، فكُلَّما ذهبنْا إلى ماضي هذا النهر كانت الأشجارُ أكثرَ كثافَةً، وكانت الظلال أكثر امتدادًا، فنخشى على النهر نفسه من نزيف الزمن القادم.

- لا أخفيكِ سرًّا أنني الآن كنتُ أُطَالِع خرابا، أشعُرُ أن وراءه جبالاً من الألغاز، وأحس أن له تجربَةً عميقةً مع النهر لا يستطيع أحدٌ إدراكَها إلا هو، أشعُرُ أنَّه يريد أن يحتضن النهْرَ كلَّه بجميع أمْواهِهِ وأسماكِه وأشجارِه وعصافيرِه الغائبة وشموسِه الغاربة.

- لعلَّ تقادُمَ الزَّمن يُنْسي بعض التفاصيل الراسخة في

ذاكرة القرى، وكأنَّكَ لم تعلمْ عن طفولته شيئاً.

– لا أبدًا، ما الذي يُغْري بطفولته، ألم يولَدْ مجنونًا، وشبَّ وسيشيخُ مجنونًا؟

– ربما تعجَبُ إنْ قلتُ لكَ: هذا ليس خرابا، هذا أمْجَدُ، أجَلْ أمجد الذي اختفى بيومٍ مشؤومٍ، ليحُلَّ مكانَه خَراب، ففي صِغَره كان من أجْمَل أطفالِ القَرْية وأنبهِهم، لم يكن لأبي ولَدٌ سِواه، فأحبَّهُ كثيرًا كثيرًا، كان يسبِقُ أقرانَه ذكاءً ونشاطًا، وذات يومٍ لمَّا كان في الخامسة من عُمُرِه غابَ وقتَ العَصْر عن الدار، لم يكنْ أمْرُ غيابه يثير استغرابَا، فأطفال القرى يُوغلون في أماكن اللعب، يجوبون أكثَرَ من دارٍ، ولا سيما هو الذي كان محبوبًا عند الجيران، تستقبله البيوت كلُّها بالترحاب، ثم يعود الأطفال إلى منازلهم عند غروب الشمس، لكنَّ الشمس توارَتْ في هذا المكان نفسه، هنا خلْفَ أشجار الغَرَب دون أن يعود إلى البيت، فتَّشَ عنه الأهلُ عند الجيران دون أن يظفروا بشيء.

انتشَرَ خبَرُ غيابه عند أهْل القرية جميعًا، فذكر أحَدُ شباب القرية أنه رآه متَّجِها نحْوَ جُرْف الغَرَب قبْلَ الغروب، تقودُه امرأةٌ ليست من نِساءِ القَرْية، لم يكن شاهَدَها من قبلُ، لم يُعر لأمرها مع الطفل اهتمامًا كبيرًا، فلم يلفت نظره سوى رائحتها الكريهة التي وصلته من مسافة بضعةِ أمتار، تصوَّرَها إحدى قريباتِه من نساءِ القُرَى الأخرى المجاورة،

يقول إنَّه كان يمشي معها باستسلام، لم يُنَازِعْها، ولم يحاول الهروب منها.

ذهب أهل القرية جميعًا إلى أشجار الغرب الكثيفة يبحثون عنه، نداءاتٌ كثيرة تجتاح الأشجار، وأضواءٌ كثيرة تخترق ظلام الأغصان المتراكبة، وخُطى كثيرةٌ تجوسُ أماكِنَ مُخيفة لم تكن الأقدام تستطيع أن تجوسَها نهارًا، ظلُّوا يبحثون عنْهُ حتى طلوع الشمس دون أن يجدوه، أو يجدوا أثرًا للدماء، أو بقايا لملابسه، لم يسمَعْ أحَدٌ من الفلاحين والرعاة صُراخ طِفْلٍ، القرية كلُّها منشغلةٌ به في زمن لم يكن لاختطاف الإنسان فيه وجودٌ، ولا للقتل غدرًا نصيبٌ.

كثُر جدَلُ الحاضرين حول تلك المرأة، فمنهم من صدَّق ذلك الشاب ومنهم من كذَّبه، ومنهم من لم يربط بين غيابه والمرأة بسبَبٍ، فالطريقُ يسلُكُه كثيرٌ من العابرين إلى القُرَى، فلعلَّها رأَتْه مصادَفَةً، أو لعلَّه لم يكن يمشي معها أصلاً، فمن غير المعقول أن تَخْتطفَ امرأةٌ مُسنَّةٌ طفلاً مثْل أمجد. استسلم الناسُ لافتراضهم أنه غَرِق في النهر، فلا يستطيع بسنواتِه الخَمْس أن يمْشِيَ إلى مكان أبعَدَ من جُرف الغرب، فراحوا يبحثون عن جُثَّته.

الجُرْف يُغيِّر هيأَتَه حسْب متطلبات الماء، حسب ما يُريد النهر، فمرَّة يرتفع، ومرةً يبدو منبسطًا، مرَّة يفرش أحجارَه

وينشر جَمالَه، ومرَّة تخرُجُ جذورُ الأشجار والعروق التي تلامس الماء فيكون مسكونًا بالخوف، أخَذ الناس يحرُثُون النهْرَ بقواربهم، وراحوا راجلين يجوبون الجُرْف الممتد، فاقترب أحَدُ القوارب إلى جُرْفٍ تكثُر فيه الأدغال والعُروق والجذور، قُبيل مغرب اليوم التالي.

الشمس تكادُ تلتصق بالغروب النائي، الجرف العالي يجعل ما تحته مظلمًا، فلم يكن مواجهًا لما تبقى من ضياء الشمس، الأشجار تنتصبً عاليةً فوق الجرف، والجذور والأدغال متراكبة، عصافير الغروب الكثيرة تدور فوق شيء ما، وكأنَّها تدعُو القاربَ إليه، تحاوَرَ صاحبا قاربٍ من القَوَارب التي كانت تبحثُ عنه، بشأن العصافير، ظنَّا أنَّها استوحشتْ حين رأتْ جُثَّة الطفل، فأسرعَ القارب إلى الجرف، ينظُران بحذَرٍ إلى المكان المُوحش الملَبَّد بالرعبِ والخوف، والعصافيرُ لا تغادر المكان، لم تفزَع العصافيْرُ من القارب الذي يكاد يلمَسُها، حدَّدا النظر إلى الشاطئ المتعرِّج وإلى جُذُوره وعُرُوقه الملتوية بما يرسُمُ لها أشكالا تُثير الهلع، أحدُهما بهدوءٍ يُحرِّكُ المجذافين، والآخر ركَّز بصرَه في المكان، فصرَخَ فَزِعا:

- إنَّهُ هُوَ.

اقتربا منه ومعهم سحابَةٌ من عصافير الغروب، وإذا به متشبِّثٌ بجذْرٍ نحيل يكاد ينفصل عن ترابِ الشاطئ، وصَلَ القارب إليه، وإذا بنصفِهِ داخل الماء، كانَا يظُنَّان أنَّه ميِّتٌ،

فعلى خوف وفزَعٍ مدَّ الرجل يَدَه إليه، فازداد خوفًا لما أحسَّ بدفء الحياة ما زال كامنا فيه، لم تكن أصابِعُه قد جمَّدها الموتُ، حاول انتزاع كفِّه من الجذر فلم يستطع، فسحبه على عجل مع الجذر وألقاه في القارب والخوف يُخَيِّم على الشاطئ.

انطلقَ القارب إلى أهل القرية الذين تعِبُوا من البحث، انطلق القارب يُثْقله الخوف، وتُغْريه البُشْرى.

يقولون إنّ أبي حينها كان يركُضُ حافيا لاستقبال القارب، لم تكن الأشواك تؤذي قدميه وهو يريد أن يعرف مصير ولده الوحيد.

الشمس ودَّعَت المكان وما زال الفضاءُ محتفظا بشيء من ضيائها:

- لقد وجدناه.

- إنَّه حيٌّ.

احتضنَ أبي أمجد، ضمَّه إليه كمن يضمُّ عمرَه العائد إليه، لم يلتفت لشيء فقد اكتفى بالتأكد من أنه ما يزال على قيد الحياة.

تراكَبَ أهل القرية رجالاً ونساء حولَه، على شاطئ الغروب، كلُّ واحدٍ منهم يُحاول أن يسبِقَ الآخر للتأكد من نجاةِ الطفل، سلَّط الناسُ الأضواءَ التي يحملونها على عيني الطفل، فتوجَّسُوا خيفَةً منهما، فلم يبدُوَا كما عرفوهما،

طالعَ الأب وجْهَ الطفل تحت الضوء المسلط عليه فاكتسى وجهُهُ بالخوف، وبانَ العرق على تجاعيده المتعبة، لم يعد قادرًا على حمْلِه، وضعَه برفْقٍ على الأرض، ساد الصمْتُ، حاول أن يكلِّمَه فلم يُجِبْ، جسَّ جسدَه المبتلَّ بالماء، فوجَد أن ظهرَه الصغير لم يعد كما كان، فقد احدودبَ كثيرًا، شعَرَ الحاضرون بما حدث له، فالفزع أرجَعَ بعضَهم خُطَىً إلى الوراء، وجَعَل آخرين يتقدَّمون بخُطى خائفة إلى الأمام لينظروا إلى الطفل، كان يسلِّط بصره إليهم بريبة، وكأنَّه يُنكر استغرابهم، فلا يدري لماذا اجتمعوا عليه في غروب مشحون بالخوف.

– أمجد ولدي، ما الذي حدث لك.

– أمجد من الذي فعل بك هذا؟ قل لي أرجوكَ.

بقي أمجد سنةً كاملةً لا يتكلم، فتأكَّد الناس من ذهاب عقله، ولمَّا تكلم حاول أبي كثيرًا أن يعرِفَ ما الذي حدَث له، لكنَّه لم يخبرهم بشيء، فكلَّما ألحُّوا عليه بالسؤال أنهى حديثَه بالعصافير وأشجار الغرب.

تصوَّرْ أنَّه في صباح اليوم التالي ذهَبَ الناسُ مرَّة أخرى إلى الجرف الذي وجدوا أمجد متشبِّثًا به، فوجدوا حذاءً لامرأة بالِغة، حجمُه (٤٥) أكبر من المعتاد من أحذية النساء، وجدوه على ذات المكان الذي ابتلع وعي أمجد، وتتبَّع الناسُ آثار الخُطى التي طبعت على تراب المكان،

فكانت ملامحُ الحذاء بيِّنة واضحة على التراب، فكلُّ الخطى بدَتْ راسخَةً على الأرض، وكأنَّها تُريد أن تُثْبت أنها كانت هنا، فوجدوها تمر من طريق القرى التي شوهدت فيه، هنا في هذا الجرف الذي تغيرت الآنَ ملامِحُه كثيرًا، فتأكَّد الناس أنَّها هي المسبِّبَةُ بذلك كلِّه.

بعد سنة من الحادثة نطَق خراب، وغاب أمجد، دون أن يعرف أحدٌ مَنْ تلك المرأة، ولماذا أخذَتْه إلى النهر، وإلى أين ذهبت بَعْد أن تركت حذاءها في المكان، بل لماذا تركت حذاءَها في المكان، هل أرادت أن تُسافِرَ في الماء مع أمجد، فاستطاع أن يتشبَّثَ بعُروق الجُرْف وتركَها تمضي برحلتها المجرمة، أم نزَلا إلى الشاطئ ليَشْربا الماء فاستلَّهُما على الرغم منهما، لكنَّ رائحتَها كريهةٌ تُشَمُّ على بُعْد بضعة أمتار، هي المجرمة، هي التي أودت بعَقْل أخي، هل التي قتلت أبويَّ كَمَدًا، وجعلت الناسَ حين يريدون أن يعرِّفوني يقولون: أخت المجنون، هي التي غيَّبت إنسانا كاملاً يُدْعى أمجد، وأحضرت مكانَه شيئًا أحدَبَ بلا عَقْلٍ يُدعى خرابا.

– ليتني لم أعرفْ تفاصيل تلك القصة المُحزنة، كنتُ أظن أنه وُلِد كذا، ولم يَقُمْ على آثار ولد مُدلَّلٍ محبوب يألفه الأهل والجيران.

– لذلك كان أبي يوصيني بالاعتناء به، وفي لحظة موته رأيتُه ينظُر إلى خرابٍ بإشفاق عجيب وقد غلب بكاؤه بكاءنا،

فعرفتُ أنَّه يؤكِّد لي وصيَّتَه به، وظلَّ خراب يُطالع وجه أبي الذي بدَت الحياة تُغادره شيئًا فشيئًا ويدُبُّ الموت على تجاعيد وجهه، راحَ يبكي بكاءً لا يُجيده ولا يتقنه العقلاء، تصوَّر أن أبي طَوال تلك الأعوام ظلَّ يراه أمجد الطفلَ بالغ الذكاء، على الرغم من أن الناس جميعًا يَرَونَه خرابًا المجنون.

لقد صاحَبْتُه عمرًا كاملاً، ولم أكرَهْهُ لحظة واحدة، أعطيتُه ما أستطيع من رحمةٍ، المجانينُ لا يُقادون بسهولة، لكنَّني أستطيعُ أن أقودَه، يُطيعني بكُلِّ شيء، حتَّى حين رأيتَ أنتَ دمعتي القديمةَ تلك، في هذا المكان نفسِه قبْلَ عشرين سنة، كنتُ أبكي من التَّعب ولا أبكي من الملل، حينَها على الرغم من طفولتي ربما كنتُ قادرةً على إعادَتِه إلى المنزل، ولكنَّني كنتُ أريدُه يُمَارسُ عشقَه، ويستمتِعُ بوعيه القديمِ وجنونِه الحاضر، المجانين لهم أفكارٌ وتصورات لا يستطيع أحد أن يفقهها، ولا يقدرُ أحَدٌ مجاراة خيالاتهم، لكنَّني أفهَمُه، أُسافر معه، أحببتُ هذا النهْرَ لحُبِّه له، تشكَّلت ذاكرتي للنهر من خلاله، أتركُهُ يُحدِّثُه طويلاً، يعيش معه في بعض الأيام من العصر حتى تلتصق الشمس بالغروب، فأؤمن أنْ ليس للنهر ذنبٌ في ذهاب عقله، فلم يكن شريكًا بجريمة غُرُوبه القديم، أثِقُ أنَّ الجرفَ انتصَرَ له، وأنَّ تلك المرأة المجرمة المجهولة قتَلَتْه لولاه، وأنَّ ظلال الغرب وقفتْ معه حين لم يشعُر به أحَدٌ، وأن العصافير هي التي دلَّت ذلك القارب على وُجوده.

أُبصرُه وهو يطالع النهر، وهو يجوب هذا المكان، وكأنَّه يُصارع شيئا ما، وكأنَّه يحاول الإفلات من كفين تُحاولان الإجهاز عليه، فيلجَأُ إلى الماء مستسلمًا لجريانه، هادئا مع صفائه، ثم يثور إلى الشاطئ مرة أخرى، محاولا استردادَ شيء ما فقده هنا، له طقوسٌ مع النهر لا يُجيدها أحد سواه.

تكوَّرَ عليه حُزن العالم جميعًا حين غادَرْنَاه لمكاننا الجديد، أحسستُ بروحِه قد جفَّتْ، وعروقِه قد يبست، يريد أن يعودَ إلى موطن أحلامه، فحين أعَدْتُه إلى النهر، أخذ يبكي حينًا، ويضحكُ حيناً، شَرِب من الماء كثيرًا كثيرًا، تمرَّغَ على رمال الشاطئ، حتى دخَل الرملُ أنفَه وأذنيه.

حدثني مرَّة صاحبُ القارب الذي وجدَه، أنه لم يُصدِّق كيف استطاع ذلك الجذْرُ النحيلُ الصمودَ بالطفل يومًا وليلةً أمام جريان الماء، الذي كان يجري بسرعَةٍ على ذلك الجرف، ويهدم كلَّ حين شيئا منه، لكنَّه طَوال بقاء الطفل في المكان لم يَهدمْ من الجرف شيئا، فللنهر دَيْنٌ عليه، فيأتي إليه وفاءً له، أم هذا المكان كانَ فيه آخر عهد له بعقله فاختفى في غروب مجهول هنا، فأدْمن على مصاحبته ليستردَّ عقله الذاهب.

- أعتذر جدًا، لأنني أعدتُكِ إلى ماضٍ مُوجِعٍ، لعلك لا تريدين العودة إليه.

- لا على العكس من ذلك، كنتُ أتمنَّى أن أُحدِّثك أنتَ بالذات، فأنتَ من أصدقاء النهر، أنت جزءٌ من ذاكرتِه،

وخراب هو الآخر أهم ذاكرةٍ للنهر، لا بُدَّ أن تعرف الحكاية.

يقترب خراب منا، تفهم أنَّه يريدُ الذهاب...

– متى ستغادر النهر؟

– لا أظن أنني سأغادره الآن، ربما حتى مغيب الشمس.

– يبدو أن النهر لا يعرف خرابًا واحدًا فقط هههههه.

– اطمئني أنا أكثرُ جنونًا منه.

– أتمنى أن نلتقي مجددًا.

– أتمنى ذلك.

يجُرَّان خُطى العودة، أنادي خرابًا بصوت مرتفع، أجسُّ ذاكرتَه، وذاكرة هداوة:

– خراب، إن شاء الله تموت!

– لا لا ما أموت.

يحمل حجارة يرميني بها، فتطالِعُنا هدى ضاحكة:

– مسكين أيُّها النهر، لا يرتادُك إلا المجانين.

يغادران فأبقى أنا والنهر وجهًا لوجه، وقلبًا لقلب، وذاكرةً لذاكرة، وأحلامًا لأحلام، أشعُرُ بالنهر وهو يُريد أن يبقيَهما أكثر من ذلك فلا يستطيع.

أحلامُ النهر كثيرَةٌ فلا تستطيعُ أن تتعامَلَ معه وأنت بكامل وعيك، لا بد أن تتزود بشيء من الجنون حين تنزل إليه.

خراب والنهر أحبَّ كلٌّ منهما الآخر، النهر للفرح الذي يتخطَّى نداءات العقل، فالذين يُلقون بأجسادِهم العارية في أحضان الماء يصرُخون دون أنْ يعلموا لماذا يصرُخون وهم يلامسون الماء، وينتفضون مثل الدِّيَكة وهم يُخرجون رؤوسَهم من أعماقه.

خراب غادَرَه فبقيت وحدي، فعليَّ أن أضاعف من رصيد الأحلام، ومن كَميَّة الجُنون التي أمتلكها، عليَّ أن أكلِّمَه كثيرًا حتى لا يستوحِشَ وقد دنَا الغروب، تلتصق الروح بسَفَر الماء، أُصافِحُه:

دجْلَة دافئة على الرغم من جليد الزمن، وبرْدِ المَنَافي، باردَةٌ على الرَّغْم من جَحِيم الحياة، شاطئان ونهرٌ واحدٌ، نهرٌ واحدٌ وآلافُ الشواطئ، لا تنامُ الليل، دجْلَة للرَّحيل المُطْلق، والقُرى تُريد أنْ تنامَ آمنَةً فلا توقظوها، اتركوها تغفو قليلاً، أتركوها لأحلامها، أتركوا عصافيرَها وحمائِمَها تتولَّى مَهَمَّة إيقاظِها في صباحٍ من السَّلام... وحدها دجلة لا تموت.

صَبِيَّة الحَي

ما أكثرَ عصافيرَ القُرى، والمكانُ الذي تألفُه العصافير هو ملاذٌ للطفولة، ملاذٌ للحياة، والربيع والحب، هو موسم من مواسم صحْو الزمان.

أيتها القُرى، من علَّم أرضَك أن تستقْبِلَ هذه الدماء كلَّها؟

وتبقى الأرضُ تجفُلُ حين تسقُطُ عليها دماءٌ دافئةٌ، الأرضُ لا تُحبُّ الدماءَ، الإنسانُ هو الذي فيه عطشٌ أزليٌّ للونها ورائحتها، ولعذابِ الأجساد التي تنزِفُ نزيفًا موجعًا، لو كانت الأرض تحبُّ الدماء لأبقَتْها دافئةً كما سقطتْ عليها، لشَرِبَتْها باشتهاءٍ كما تشرَبُ المطرَ، لأبقتْ لونَها الأحمَرَ دون أن تغيِّرَه إلى سوادٍ موحشٍ، الأرض تكرَهُ وجوه القاتلين، تعرفهم، لا تفتح ربيعَها أمامَ خُطَاهم، ولا تُهدي بيبونَها ولا عُشْبَها الأخضر لأعينِهم.

نجمةٌ في السماء، وموجةٌ تعبُرُ قليلاً قليلاً في حدود ما بين النهر والنهر، قمرٌ يعبُرُ الغيوم، وطائرٌ وحيدٌ في الليل يؤنِّس الضفّتين، يُلقي للماء أناشيْدَ الليل، يُهدي لصيَّاد في قاربٍ قديم كثيرًا من الأمن والسلام، يكون بعضًا من حديث النهر والشبكة.

الأسماكُ لا تتعانق، قد يُقَبِّل بعضُها بعضًا قُبَلاً خفيَّةً على عجلٍ وخوفٍ، فيفرِّقُها الماء، قُبَلُ الأسماك لا تنتمي لفلسفة القُبَل الحقيقية، ولا لتاريخ العِنَاق الحَميم.

ليس للأسماك عِناق شَهيٌّ؛ يُلقي الذَّكَرُ شهوَتَه من بعيدٍ فتتلقَّاها الأنثى فيتمُّ التزاوج والأجساد على انفصالٍ تامٍّ، لكن النهر يحفظُ اشتهاءات السَّمَك، يكون الماءُ جسَدًا مُوصِلاً للحب والشهوة.

لا عناقَ داخِلَ الماء، العِناقُ الحميمُ الشهيُّ العذبُ قربَه، على الشاطئين، تحترقُ أحجارُ الشواطئ وتظل الأجساد مبتلَّةً بماءِ الحياةِ، الأسماكُ لا ذاكرةَ لها لأنَّها لا تعرِفُ العِنَاقَ، لأنَّها لا تُوجِعُ الشفتين وجعًا خالدًا في لحظة الغياب اللذيذ.

أعودُ من دجْلَة معي عبقُهَا، أشعُرُ انني أكثر جنونًا من خراب؛ لأنه اكتَفَى منها وذهب، وأنا لم أكتفِ؛ لكنَّه الليل أقبل بظلامه الثقيل، أودِّع دجْلَة كَمَنْ يودِّع حبيبتَه وحيدةً في مكانٍ ناءٍ، كُلَّما جلستُ معها يكون لي جناحان من أمل فيغادران عند أول خطوة من وداعي لها، أمشي في الدروب المعتمة إلى البيت، إلى غرفةٍ مظلمةٍ ونافذةٍ لا تؤدي للهروب إلى الآفاق الصافية.

بلا رغبة بالخروج تُخرجنا الشمسُ من جُحُورنا، بعد أن تعطَّلَت الوظائفُ وصارت الأيامُ مُكرَّرةً...

..... هذا الصباح، هذا الصباح، وبلا مُقَدِّمةٍ، كَمَنْ تُريد أن تُلْقِيَ عن كاهلها عِبئًا ما، تقول لي إحدى صبيَّاتِ الحَيِّ:
- أحبُّكَ!

وتقف لتُطالع ما الذي سيحدُثُ بعد الزلزال الذي تلاطَمَ في رُوحِها.

لكنَّها تتجمَّدُ في مكانِها حين تدركُ أنه لا وجود لزلزال عندي، فقد مضتْ إلى حيثُ لا أدري عواصفُ العشق، وزلازلُ الحب، أظلُّ ساكتًا، فتدور في مخيلتي فكرةُ أن قرار الحب يحتاج لأيَّامٍ طويلة من الإعداد المُسبق، والتدريب المُحْكم، تنظُرُ إليَّ بشجاعة تُلْغي خمسَ عشرَةَ سنةً ما بيننا، كيف استطاعت في زمنِ الرعب، زمنِ غيابِ حُرِّية الإنسان، أن تتسلَّح بكل هذه الثقة والقوة والشجاعة، لتضع كُحلاً قاتلاً، وترتدي خِمارًا شفيفًا تستطيعُ من خلاله أن تقيسَ نسبَةَ أحْمر الشفاه ولونَه الذي وُضِع على الشفتين المُحْتَجبتين، تستطيعُ أن تكتشفَ ذلكَ الاشتهاءَ المضمَرَ للشَّفَتين خلفَ السوادِ الذي لم يستطعْ كتمانَ البوح، وتسرق رجُلاً من قَبْضة العيون التي تترصَّدُ أسرار الناس، وتتعطَّش إلى انتهاك حُرُمات الحبِّ والجمال، لتُوْقِفَني في الطريق، وتقول: أحبُّكَ.

أظل ساكتًا ساكنًا ويظلُّ عطرُها معها، ويأخذ الدمعُ ما يأخُذُ من كُحْلها ويمضي إلى الوجه الذي أتصوَّرُ ملامحه وهو يستقبل الدموع.

الزمان والمكان تجربتان هائلتان، فحين يتحجَّرُ الزمان تتحجَّر تجاربُنا معه، الزمانُ والمكان هما اللذان يشكِّلان أحاسيسنا وتجاربنا فلا نستطيعُ الهروب من قيودهما.

تقول: أحبُّكَ، وأنا مثل الحجارة، أتركها لدموعها، لحبُّها الذي ينتظرُ كلمة أخرى تحاورُه كي ينمو، أنظرُ إلى نِقابها الأسود، وعباءتها السوداء ووجهها الأبيض الذي أعطى للكُحل لونًا من ألوان الوقوف على مشارف الموت والخُلود، المكياج الذي وضَعَتْه تحت النقاب وهو يتحدَّى قُبْحهم كلَّه، المواقف العظيمة تظلُّ عصيَّةً على التفسير، فكنتُ مثْلَ الذي يُكابِدُ وسط العاصفة، لا يَدْري كيف ولماذا اجتاحَتْه، ولا يعلمُ أين تكونُ حُدُودها، ومتى ستنتهي؟

لماذا لم تكن عندي القدرة على مضْغ حروفها: (أُ... ح... ب...ب... كَ...) حَرْفا حرفًا، كما كنتُ أفعلُ مع حُروف ضحى؟

أنظر إلى القَطَرات السود التي تتحدَّرُ تحت النقاب الأسود على عَجَلٍ، فأعْلَمُ أنَّها ليست عابثَةً، أثق أنها صادقةٌ معي.

ما الذي أغراكِ فيَّ؟

ما الذي دلَّكِ عليَّ في زمن المِحْنة؟ أم هي المحنَةُ تدفعُنَا نحو الجنون، نحو اختيار المتخالِف، نحو عُبور بوَّابة الخوف، المحنة تجعلنا نأتي إلى الطريق من نهايته، لأنَّ

نهاية أعمارنا تعيش معنا، لذلك قالت لي:(أُحبُّكَ) دون مقدمَةٍ ما، دون الطقوس التي تكونَ قبل إعلان حالة حُبٍّ.

ما الذي أغراكِ فيَّ؟

وأنا أحْمِلُ كلَّ يومٍ تاريخًا من صرخات الأطفال، وقوافل من نَحِيْب الأمهات، وصورًا من نشيج الآباء الذي عبَر حُدُود المُكابرة، أحْملها وأذهَبُ إلى دجْلَة ولا أعودُ حتى تغيبَ الشمسُ.

ما الذي أغراكِ فيَّ؟

أهي دجْلَة قد قرأتِ أحلامَها وغرامَها بصدري، أم هي التي أرْسَلتكِ إليَّ رافدًا صغيرًا من روافدها يلقاني في طريق العودة، حتى أنجُوَ من الذُّبُول والجَفافِ.

ما أصعب أن تَستحوذَ النكبةُ على قاعِ القلب، أنا عاجِزٌ عن الحُبِّ، انا أجبَنُ من أنْ أُطْلقَ للقلب جَناحيه، إنْ بَقِيَ له جناحانِ.

هذا الصباح أدركتُ انتهاءَ صلاحيَّتِي لحُبٍّ جديد.

أيَّتُها الصَّبيَّةُ الطالعةُ من صباح الترقُّب، أمشي في الطريق وأشعُر أنَّ شيئًا عظيمًا سيحدُثُ فتُلْقين شِباكَكِ عليَّ، بعْدَ أن تَفَلَّتِ من شِباكِ الوقت المرير، أيَّتُها الصبيَّةُ التي تخُوضُ تجربَةَ الحُبِّ لأوَّلِ مرَّة بكلمَةٍ ودموع، فجاءت مُتْقنَةً بشكل يجعلني أقرَأُ دموعَها على عجَلٍ، وأكتُبُ على عجل صفحةً أخرى من صفحات الخَيْبة الكُبْرى والهزيمة

العظمى، وأنا لا أستطيع أن أُوَاجِه أربعَةَ حُروف ودموعًا.

أكُنْتُ فعلاً عاجزًا عن إنشاء حُبٍّ جديدٍ، أم كنتُ وفيًّا للحُبِّ الأول، أم هُما معًا؟

كانت ضُحى تقفُ بيني وبينها، ضُحى أقْبَلَتْ بخفقَةٍ قلبٍ واحدةٍ من مجهولِها البعيد، لتُمْسكَ يدي مُعلنَةً عَجْزي الكامل عن إنشاء حبٍ جديدٍ.

تُمُرِّين من حُطام الأماكن البعيدة، من ضجيج الأيَّام الغَاربة، للهدوء القديم تأخذينَني ونمشي، تَمُرِّين قليلاً، وتغيبين كثيرًا، الغياب أبعَدَنا عن منازل الذكرى كثيرًا، تغيبين أُنْثى أتعبها البحثُ عن ضياء قديم، أُنْثى متعبة من السفر خلْف حُلُم ذاهب، خلْفَ طائِرِ الزمن الذي خبَّأَتْه أشجارُ الغَرَب وراحَتْ.

في زمن المحنَةِ كلُّ شيءٍ ينتمي للجمال يكون جمالُه مُضاعَفًا، وكلُّ شيء ينتمي للقُبْح يكون قُبْحُه مضاعفًا كذلك، لأننا نرى الأشياء في النزْع الأخير، الجمالُ لا بُدَّ أن تضفي عليه شيئًا من الحلم، لأن الواقع يُمْسك بالأشياء بأكفٍّ من قُبْح، والقبحُ يمتد طويلاً في الأرض لأنَّ المِحْنة الكُبْرى هي التي تسقي عروقَه.

ما أجمل الحياة لو يدخُلُ القاتلون من بَوَّابة الظلام التي طلعوا منها، لو يذهبون إلى مجهول بعيدٍ أبعَدَ من صفحات التاريخ.

من يستطيعُ أن يُحْصي القتلى..

من يستطيع أن يُحْصي الجرحى...

من يستطيع أن يُحْصي جِراحات الضمير وهو يستقبل القتلى والجرحى...

أيَّتها الحَرْبُ الطالعةُ من تحت أقدامنا متى تنتهين؟ أيتها الحربُ التي أفْقَدَتْنا الثقة بالأشياء، وجعلتنا نتوجَّسُ خيفةً من كل ما هو مألوف لدينا: الشوارعُ... الأرصفةُ... السياراتُ... أبواب المنازلُ... النوافذُ، كلُّها مُعدَّةٌ للانفجار، إنَّهم لا يتركون حُرمة لشيء، حتى القتلى أنفسُهم لم يكتفوا بقتلهم مرَّة واحدةً، فخَّخُوا أجسادَهم ليقتلوهم مرَّتين.

قد تتشابه المُدُن، وقد تتماثل الشوارع، وقد لا تجدُ فرقًا كبيرًا بين أرضٍ وأخرى، لكنَّ الأنهار لا تتشابه، لكل نهْرٍ روحُه التي لا تراها إلا القلوبُ الحالمة، لكلِّ نهرٍ أسرارُه التي لا يكشفها إلا لعُشاقه.

أيُّها النهر الذي لا يرتاح إلا بالسفر، يا أيُّها الذي يتغيَّر صفاؤه حين يقف، أيها الشاهدُ على الحرب، أيها النهر الذي تحدَّى كلَّ جحيمها، لن ينهزمَ الماءُ وكلُّ شيء حيٍّ يعود إليه.

خراب: أيُّها القادم من ذاكرة النهر، أُصْغي إليك وأنتَ تقولُها بثقَةٍ مطلقةٍ:

- لا لا ما أموت!!

لماذا كنتَ واثِقًا من النجاة والناس يُتَخطَّفون من حولِك، لماذا كُنْتَ متأكِّدًا من أنَّك لا تموت، ألأنَّكَ عايَنْتَ الموتَ القديْمَ فنجوتَ منه ولم يَعُدْ يُخيفك؟ أم لأنَّ المجانين يُقيمون جِسْرًا من الوصال بينهم وبين الحياة فلا يُحبُّون الموت؟ أم هو النهر أمدَّك بالأحلام، فامتلأتَ بالحياة حتى صِرْتَ ترى الموت بعيدًا بعيدًا؟ النهرُ يحمي الأرواح من الظمأ، يحمي النفوس من التصحُّر، يحمي الأحلام من الجفاف.

حين تسكنُ في ديارٍ كانت من قَبْل ميدانًا للمُلْك، تكونُ قد حُمِّلتَ عبئًا كبيرًا، تدخل على الفور محنة التقصير، ويسكنُكَ هاجسُ انفصال منارات الماضي عن الحاضر.

أنظُرُ إلى القُرى وأنا أقفُ في قلبها النابض نبضًا خافتًا على استحياء، عند دجْلَة الشاهِدِ الحَيِّ، أحمل معي تفاصيل الزمن، والتفاصيلُ حين تثب من الروح تكونُ همسًا طالعًا من مراكبِ الحياة، أرى الأماكن التي في القلب، الأماكن التي اغتسلت بالمطر واستقرَّتْ في الذاكرة...

أمرُّ على ترابها، كم مشى هنا بشَرٌ سابقون، أشربُ من مائها، كم سبقني إليه آخرون، أكتب عنها، أكتُبُها، أكتبُ فضاءها، أكتب عن زقورتها العالية، عن نسائها العائدات من الحقول، عن رُعَاتها الذاهبين في رحلَةٍ تتكرر مرتين كلَّ يوم ولا يملُّونَها، أكتب عن أزمانٍ خلت كانت لشموخها

قريبَةً من الشمس فتُسمى بوَّابة الشمس، أكتُبُ عن ندائها العالي القديم والأيامُ من حولي خرساء لا تتكلم إلا همسًا، أكتُبُ عن ضيائها وأنا في زمنٍ مُظلمٍ.

ما أجمل أن تَكْتُبَ عن الحُرِّية وأنت في غُرْفَةٍ ضيقة محاصرة.

ما أجْملَ أنْ تكتُبَ عن الفرح وأنت تبكي.

وما أروعَ ان تكتُبَ عن القمر وبينك وبينه سقوفٌ صدئة؛ لأنَّك تكتب والحرمانُ يُغْريك بأن تُغادِرَ المكان الذي أنتَ فيه حين تهبط أحلامُك من سماواتِها البعيدة.

سعيدٌ في أحزانِ المُخَيَّم

تختلط الأصواتُ في الذاكرة، ويصعَدُ نحيبُ الآخرين حتى يصلَ إلى العينين، فتتكلَّمُ بالألسنةِ الناس، وتبكي بدموعِهم قبْلَ دُمُوعِكَ، فتختلطُ في الدموع أحزانُ جيلٍ كاملٍ، والحربُ مثل عاصفة قادِمَةٍ من صحراءَ مجهولَةٍ تجتاحُ بقايا ربيعنا: النزوحُ... والهجرةُ... والتهجيرُ... والغُربةُ... والغيابُ... والبقاءُ المُرُّ... كلُّها تلتقي عند بكائيةٍ واحدَةٍ على عتبة الدار، شظايا الحرب تسقُطُ على أجساد المُدن والقُرى، فتتناثر هنا وهناك، لا تدري أين ذهب أحباؤك، ولا تعلم في أيِّ فضاءٍ مهول يجثُمُ الغروب على أصحابك البعيدين.

بين نار البقاء جوارَهم، وجَمْر النزوح في المخيمات على أطراف المُدُن التي تَشْتِمُكَ عيونُها وألسنَتُها، وتطمَعُ أيديها بما في جيبك من مالٍ قليلٍ، بين ذلك كله يقبعُ الأحبَّةُ الغُرَباء عن الأرض.

– أهلا أبا سعيد، كيف أنت، كيف سعيد؟ لا أراك كثيرًا، لا بد أنَّه حبَسَك في الدار، فتَلْتَهِمُه بالقُبَل طَوال اليوم، وأخيرًا جاءك هذا السعيد بعد سنينَ من الانتظار.

ينظر إلي بلقْبٍ يحيطُ به اليأس من كل جانب، وكأنَّه يُحاول اجترارَ ذكريات بعيدة، أو يُمْسك بأمَلٍ هاربٍ.

– كأنك لم تسمع شيئًا عن سعيد.

– أعتذر، فأنتَ تعلَمُ أنَّ الأيَّام أثقلتْنَا جدًّا، قطَعُوا الاتصالات، وأمْسَكُوا الطُّرق، وشَغَلونا بالبحث عن النجاة، سمعتُ قبْلَ زمنٍ أنَّكَ رُزقت بمولود أسميتَه سعيدًا، أليس هذا صحيحًا؟

– بالفعل رُزقتُ بمولودٍ، وقد أسميتُه سعيدًا، ولكن تصوَّرْ أنَّني لم أرَه لليوم.

– سعيد الذي كنتُ تنتظرُه تلك السنينَ كلها!

– نعم، فقَبْلَ أن يُولَد بشهرين أرسلتُ أمَّه إلى أخيها الذي يسكُنُ في مخيَّماتٍ على أطراف كركوك، فولَدَتْه في المخيَّم، يقولون إنَّ عينيه سوداوان، يقولون إنَّ شعره أسود، يقولون إنَّه يُشْبهني، يقولون إنَّه يبكي في الليل كثيرًا بلا سبب، وأنا أبكي مثلَه في ظلام المكان النائي، أكادُ أختنق، لم أكنْ أعلم أن للشوق كفَّيْن وحشيَّتين يُطوِّق بهما عُنُقي بهذه القسوة.

على عتبة الدار قلتُ لزوجتي: إنْ كان مولودُنا ذكَرًا فسمُّوه: (سعيدًا) لأنَّ الطريق للرصاص واللظى، ولأنَّ الأماكن أصبحتْ مستودعًا للشجى والشقاء، فلا بُدَّ أن نتحداها حتى بأسمائنا، سعيد الذي لم أرَه للآن، أسمع بكاءَهُ، أرى دموعَه تسقُطُ على وجهِهِ الغَضِّ بغزارةٍ على غير

عادة الأطفال الذين غالبًا ما يبكون بلا دموعٍ غزيرَةٍ، سعيد حمَّلتني عبئًا كبيرًا، فكيف سأبْلُغُ سبيلَ الرشاد إليك، فيا قلبي على دموعك يا ولدي، يا قلبي على عينيك اللتين لا يُسْكِتُهما الليل.

أنْ تعيشَ في مكانٍ ما وأنتَ مسكونٌ بهاجس مغادَرَتِه عند أول إشراقة ضياء تأتيك من ثُقْبٍ ما في جِدار العُزْلة، حينها لا تنتمي للمكان الذي أنتَ كائِنٌ فيه، حينَها تتشابَكُ القيودُ حولَك.

وهم حين يسمعون حديثك عن الشوق والحب، وعن بكائك وبكاء أطفالك، تكون مُتَّهَما بالهَزيمة أمام عُنوان الرجولة الذي انتميتَ إليها، فهم وحُوشٌ لم تدخل في رؤوسهم مفردةٌ واحدةٌ من مفردات الحب والحنين.

لم أرْحَلْ معهم، كان المكانُ بأيدٍ خفية يمسك بي، لم أكن أنظُرُ إلى لحظة الدماء المحيطَةِ فحسب، كنت أفتَحُ نوافذَ الزمن ليدخُلَ ضياءُ الماضي إلى الحاضر، كنتُ أدوسُ على رُكام الحُزن المقيم لأستشرِفَ قطرةً من أمل في أقصى المسافات.

أرْسلتُهم إلى مكان بعيد لأطمئنَّ على حياتهم، كانت صورة (محمود العمر) تطالعني، لا أريد أن يعيش سعيد محملاً بذكرى أبٍ قتيل، انتظرته طويلاً لأجعله سعيدًا، فلا أريد أن تصفع مسامعه كلمةُ (يتيم).

لا زوجتي ولا طِفْلِي، وحدي هنا، ليس معي إلا قلبي الذي تَعِبَ من شدَّة الشوق، أعيدوهم إليَّ، أو أرسلوني إليهم، تعبتُ من هذا المكان، وأتعبتُه معي من شدة اشتعالي، لم أعد أُبْصر سوى لحظة الدماء المحيطة، لم أعُدْ قادرًا على فتح نوافذ الزمن، الأبوابُ جميعُها موصدة.

بعد سنةٍ وأحد عشر يومًا وخمس ساعات أقف أنا والمجهول وجهًا لوجه، يقولون إنَّ عينيه سوداوان، يقولون إنه صار يبتسم، صرتَ تبتسم يا سعيد ولم أضعْ وجهي على وجهك، ولم أكتشف استجابتك للفرح والغضب.

ليس من السهل يا أيمن أنْ احْمِلَ كلَّ هذه المسافات وحدي، أشتاق لذلك الضجر الجميل: بكاء طفل يقطَعُ سكون الليل في أيامه الأولى، أجفُلُ من صوته، وأجفُلُ إذا سكَتَ طويْلاً، يا سعيد أُدْرك أنَّك ستُنْكرني إذا التقينا، ستُنْكر فَمًا يُقبِّلُك بشوقٍ عميقٍ لأول مرة، كيف ستألفُنِي وأنا أهجم عليك بشراسَةٍ حُبٍّ لم تعهدْها من أحدٍ قبلي، مرَّتْ عليك سنةٌ وأحد عشر يومًا وقد تطول أكثر من ذلك، وأنْتَ لم تعرف دفءَ صدر أبيك، أرجوك حين نلتقي لا تُنْكرني، لا تعذِّبْني، لا تحمِّلني وزر غيابٍ لم أكُنْ صانعًا له ولا راغبًا فيه.

اليوم وبعد أكثر من سنة من الغياب، لا تُطالبني بلُغَةٍ محتشمة، لا تمنعني من الصراخ، لا تقف بيني وبين

جنوني، لا تعاتبني إذا رفضتُ الأشياءَ جميعًا، لا تظلمني إذا ثرْتُ على المكان، لا تُحدِّثْني عن وسادة الليل وقد مللتُ من صمتها الكئيب، لا تقل لي : هذه الأبوابُ، وقد علمتُ أنها جميعًا كاذبةٌ، لا تشر لي إلى الدروب وهي لا تُؤدِّي إلا إلى هذا المكان.

أحتاجُ لولدي وزوجتي مثلَ أيِّ كائنٍ في غابةٍ منسيَّةٍ، أحتاج للُغة دافئةٍ، وحديثٍ دافيءٍ ومركبٍ يعرفُ طريقَ الخَلاص.

في الغياب الطويل أرْفُضُ الأشياء، لا آنَسُ إلا لدجْلَة لأنَّ فيها عبقًا من الماضي، لم يستطع القتلة جميعهم أن يأخذوا شيئًا منه، أضحك أمَامَها لوحدي، أغضبُ لوحدي، وأرضى لوحدي، يا سكون الليل، يا غُربَةً لم أعهدها أو أقرأْ عنها من قبلُ، المسافاتُ من لظى، الطريقُ من لظى، الربيعُ يقف على جحيمٍ لا تقاوَم.

أجَلْ كلُّ هذا الغيظ اختزنْتُه حين تكون الدروبُ عاجزةً عن حمْلِ خُطَاي إلى زوجتي وطِفْلِي، هذه الأماكنُ لا ذنبَ لها باحتراقنا، أنا الذي أوقدتُ الحرائِقَ من حولي حين ودَّعْتُ زوجتي.

يظل أبو سعيد مع الأيام، كلَّما امتدَّ الزمن ضاقت مساحةُ الأمل، كُلَّما كبُر سعيد صغُر المدى وضاق الفضاء الأزرق، تكبرُ المحنة في قلبة وتصغُرُ في قلوب الآخرين، فالناس

في زمنِ الفجائع الكُبْرى لا يلتفتون إلا لكُبرى المصائب، لا يسمعون بكاءَ سعيد في المُخَيَّم حين يرون دموع أبناء محمود العمر التي تُفْزِعُ الليل، والأرض البعيدة.

الوقوفُ بينَ نارَين

أقفُ بين نارين: البوح أو السكوت، البقاء عند حرائق الدار، او الرحيل إلى حرائقَ أخرى، أُحاول الهروب عن وجوههم، لكنَّ الغيظَ يُبْقيني عندَها لألعَنَها كثيرًا، أُحَاول ألا أكتُبَ عنهم فَهُمْ أخْسَأُ من أنْ تلتفِتَ إليهم اللغةُ، وإجرامُهم أوْضَحُ من أنْ تكتشِفَهُ الكلماتُ، ولكن هل تستطيع لغةٌ ما بما أوتيت من بيان أن تَرْسُمَ ذلك الحِقْدَ الكَامِنَ في أنيابِ الذئابِ، أو أنْ تُصَوِّرَ أصابِعَ القاتل وهو يُجْهز على صدور عُشاق الحياة، أو أن تَصِفَ عيون القتلة وهم يبتهجون بسقوط أجساد الأبرياء، أحاول ألا أكتُبَ عنهم مخافَةَ أنْ تُخَلِّدَهم اللغة، حتى وإن كانت تلعَنُهُم، فهم ليس لهم عهدٌ.

أخذوا أحبابنا وقالوا إنَّهم آمنون ثم قتلوهم في أماكنَ مظلمةٍ، أخذوهم من بُيُوتهم، من دفءِ أحْلامِهم، بدمٍ باردٍ أخذوهم، وبدمٍ باردٍ قتلوهم، ولدموعٍ حارقةٍ تركوا أيَّامنا.

لا مكانَ لأحبابنا على الأرض... بيوتُهم في أرواحنا... منازِلُهُم في قلوبنا... دروبهم هنا في صباح الحياة... أفراحُهم الأولى ستظلُّ كائِنَةً معنا.

أحاول ألا أتكلم عنهم؛ فالقاتلُ لا ينبغي للُغةٍ أنْ تخلِّدَه،

فالخلود للأرواح الباقية في ضمير الربيع، وفي دفء الشجر، في غنائية العصافير، وفي بكاء الغُرُوبِ.

عشراتٌ من الشهداء تصل أنباء مقتلهم بيومٍ واحد، وآلاف القلوب تستقبل تلكم الأنباءَ القادمةَ من أرضٍ قريبةٍ، والقرى في لحظةٍ واحدةٍ تخلَعُ رداءَ الربيع، تنتَفِضُ فزَعًا بعد هدوئها، تجفُلُ العصافير والحمائم، ترتَجِفُ أمواجُ دجْلَة.

أيها القاتلون رِفْقًا بهذه المدينة التي أجبرها البكاءُ الطويلُ على الصمت، مدينةٌ ساكتةٌ من جهاتها جميعًا، وأصحاب الرايات السود يكتبون الحكاية بدماء أحبابِنَا الراحلين، يكتبون الحكايَةَ بنحيبِ أمهاتِنَا.

لنْ يظلُّوا على هذه الأرض؛ لأنَّ قلوبَ الأمهات لن تَسْكُتَ عن نداءاتها في الليل الحزين، هذا اليوم سيَذْكُرُه العالمُ جميعًا، به سينتهي صوتُهم الذي أجبر المدينة على السكوت شهورًا طويلةً، لم تصل أجسادُ الشهداء، وإنَّما وصلت إلينا أنباءُ مقتلهم، لا يُهدوننا أجساد أبنائنا حتى نودِّعَهم الوداعَ الاخيرَ، حتى نسكُبَ على تلك الأجسادِ المسافرةِ بكائية القلوب.

إنَّهم يخافون من أجساد الشهداء...

ما أصعبَ هذا الموت، وما أقسى أن يَعيشَ الإنسانُ بانتظارِ أملٍ لا يأتي، يكونُ تحْتَ عذابِ انتظارٍ قاتلٍ؛ لا هُمْ

أطلقوا أبناءَنا بعدما أخَذُوْهم من بيوتهم وقالوا نحقِّقُ معهم لأيامٍ ونعيدُهم، ولا هم أرسلوا إلينا أجسادَهم، أرسلوهم للغياب، وتركونا لخيطِ انتظارٍ كاذب.

أرغمونا على الضيم، على الذُّلِّ؛ فالناس يقفون بانتظام عند مراكزهم، يتوسلون إليهم لكي يعرفوا مصائِرَ أبنائِهم، وهم يمُنُّون على الناس حين يخبرونَهم بأنَّهم قتلوهم، هم زائلون عن هذه الأرض، ماضون إلى حرائقهم؛ لأنَّ ألسنة الأمهات تدعو عليهم، ولأنَّ أشواق الأطفال على سحائِبَ من الدُّموع ترحَلُ إلى الآباء الغائبين.

أمشي في المُنعرجات دون أنْ أدري لماذا أمشي، كأنَّني أريدُ استنطاقَ الأرض، هذه المدينة التي ظلَّت مأوى للحياة لا بد أن تعود إليها الحياة، لا بد أن تنطفيءَ حرائقهم بأجسادِهم، أُحَاول ألا أكتُبَ عنهم فَهُمْ أخْسَأُ مِنْ أنْ تَلْتفِتَ إليهم اللغة، لكنَّ أحبابَنَا الغائبين وهم يستقبلون رصاص النهاية المُفْجِع يجعلني أكتب، أكتب انتصارًا للشهداء، انتصارًا للأرواح التي أكاد أسمع رفيفها في سكون الليل.

أشتاقُ للربيع القديم، أريدُ أن أتنفس، أريد أن أفتحَ أبوابَ الرحيل إلى حبيبتي الأولى:

ضُحَى أحبكِ الآن أكثَرَ من أيِّ وقتٍ مضى.

للحُبِّ رائحةٌ تُشْبِهُ رائحَةَ أرضِ الرَّبيع، تُشبه رائحةَ فَجْر الرِّيف، الحبُّ لا يصدُرُ عنه إلا الحبُّ.

قمرًا تزورينني فأفتَحُ أبوابَ الرحيل إلى منازلنا الأولى من جديد، تفتحين نوافِذَ الأمل مرةً أخرى، أتنفَّسُ من جديد، أُخْرِج رأسي من هذا الجُحْر المُظْلم، أصرُخُ للفضاء مثل الذين يُخْرجون رؤوسهم من مُتُون السفن ويصرخون أمام البحر الواسعِ، كأنَّهم يريدون أنْ يُسْمعوا الساحِلَ البعيد نداءاتِهم القادمة، تفتحين أبوابَ الرحيل، ثم لا تتركينني وحدي، تعلمين أنني أُحِبُّ السفر بيد الحبيبة، معنا عصافيرُنا، معنا دروبُنا التي لا نعلم إلى أين ستأخذُنا، تضحكين بكلِّ شهيَّةِ الفرح.

يا أيها الليل، أيُّها الأفق الذي بيني وبينَهُ جدارٌ صامتٌ، أكادُ أختنق، لم أكد أُخْرج راسي مِنْ نافذة الحبيبة، ما زلت في منتصف طريقي معها، فأرجعني هذا النداء:

(عاجل عاجل عاجل) إنهم يُعْدمون العشراتِ من أبناء الشرقاط...

فعدتُ محمَّلاً بكل ضَجَر العالم إلى جُحْري الكئيب.

الآنَ والضَّجَرُ يُغْلق النوافذَ والمنافِذَ جميعًا، لا مهربَ إليها ولا إليهم، بعيدون بعيدون، أصرخُ في العتمة وحدي، في العتمة أصرخُ، لا امرأةٌ أغفو على يديها، ولا جديلة تغفو على صدري، ولا شيء يعيدني إلى طُفُولتي، أشعر بأنني كبُرْتُ كبُرْتُ، هناك هناك نشرتُ بسمة الصباح، وهنا هنا خبَّأتُ دمعةَ الليل.

صخرةُ الغُروبِ الأخير

أتصَّفحُ جهاتِ العمر جميعًا، فاجِدُ أن بيني وبين منازل الطفولة جدارًا عازلاً، فأحمِلُ مِعْولي على الرغم من عُيُون الوقت لاًهْدِمَ الجدار، أتزوَّدُ بجنونٍ مَلْحَميٍّ عظيم فاقتربُ من أماكن الطفولة، أضَعُ يَدِي على نعومة المكان القديم.

النارُ هي أهم أسلحتهم، بها يُحْرقون أجساد البشر، بها يُشعلون أيَّامهم وذكرياتِهم، بها يُوقدون بقايا الأمل، بها يُشعلون بيوت الناس، بها يحرقون الكتب وذكريات المنازل، يترك الناس منازِلَهم بحثًا عن أدنى نصيبٍ من الحياة، بحثًا عن أفُقٍ آخَرَ يمنَحُهم أنفاسا تتردَّدُ في صدورهم، فتكون البيوتُ بكل ما فيها من ذكريات نهبًا بأيدي أصحاب الرايات السود، إن شاؤوا دخلوها وإن شاؤوا أحرقوها، الشفقُ تذوب فيه آخر حجارة من الجدار الذي بيني وبين الطفولة، أُغْرق آخر العمر بأوَّله، وأتركُ الفضاءَ القديم يتسلل إلى زاوية اختناقي، على الرغم من قبضة الحصار، أقتربُ من الشفق كثيرًا، أكونُ خفقةً من خفقاته، أتقلَّب مع رحلَةِ اللون، أسمَعُ ماءَها وهو يَبْتهج كُلَّما اخترقه شفق الغروب.

.... (صخرةُ الغروب الأخير) والطفولَةُ، وثلاثُ قطرات من دمٍ لا يزول..

ترى أين ذهبتْ فتاةُ القلب الأسطوري الكبير، هل قتَلَتْها الحَرْبُ، أم عبرتْ غضبَ الشظايا لتستقرَّ في مزاغلِ الحياة، لا بدَّ أنَّها قد تزوَّجت، لا بد؛ لأنَّها أتقنَتْ فنَّ الحُبِّ منذ كانت صغيرة، بل لا بُدَّ أنها قُتِلت بأداةٍ من أدوات الحرب، فالعشاق الأوائل ليسوا آمنين.

أُطَالع (صخرة الغروب الأخير) بعُنْفوانها المجيد، والمنزلُ القديمُ كُلَّما تآكلتْ جدرانُه رسختْ ذاكرةُ القُرى والنهر فيه، إنهم لا يُشْبهون إلا أنفسهم، ولا يُشْبه أشياءَهم شيءٌ، أشياؤُهم مثلهم، سياراتُهم تُشبههم وهي تسير على الأرض، وهي تستفزُّ الأماكن، أنظر إلى المنزل القديم فتقفِزُ من الزمن الغابر تلك الصبيَّةُ النائية، أنظُرُ إليه بشهيَّةٍ لا أملك لها تفسيرًا، القلب يستَشْرفُ اللحظاتِ قبْلَ أنْ تَقَعَ، بلا هوادة تضرب ثلاثُ سياراتٍ محملةٍ بهم جَسَدَ المكان، تُفْزعه على الفور، يقتربون يقتربون من المنزل المتآكل، يقفون على (صخرة الغروب الأخير) لِيُحرقوا المنزل القديم بِحُجَّة أنَّ صاحِبَه تركَهُ لينضمَّ إلى الجيش.

قُبيلَ الغروب والشَّفَقُ يُغَطِّي ماءَ النهر كلَّه يُحرقون ذلك البيتَ الساكنَ في ذاكرة القرى، الماكثَ في قلب الزمان الأبيض، أشياؤهم تُشبههم... تُشبههم، نارُهم على عجل تَضْطَرِمُ في البيت.

أقفُ وبيني وبين الماضي نارٌ داعشية، أرى الذكرياتِ واحدةً تلْوَ الأخرى تحتَرِقُ، أرى كفَّ الطفلة القديمة تهرب بعيدًا خوفًا من النار والدخان، النارُ تلتهم جدارًا كان فيه قلبٌ أسطوريٌّ عشتُ فيه أيامًا من الحُبِّ والخوف والقلق الجميل.

أيها الأسفلون، أيها الأرذلون، أما اكتفيتم بإحراق قلوبِ الناس فعُدْتُم إلى بقايا قلبٍ علَّمَنِي الخطوات الأولى من الحب.

من بعيدٍ أرى وجَعَ قطراتِ الدَّمِ الثلاث الباقيةِ على الجدار وهي تُلامس النار، تزداد توهُّجًا قبل أنْ تَمْحُوَها النارُ والدخان، فاللظى المضطرم على (صخْرَة الغُرُوب الأخير) ينعكسُ على ماء دجْلَة، فتختلط النار بالشفق، هدوءُ دجْلَة يُفْزعه صوتُ اضطرام النار وحسيسها المرعب، كُلَّما أقْبَلَ الليل ازدادَتْ ألْسنَةُ اللهب وضوحًا.

تمتدُّ النار إلى وسادَة الأرَق الأوَّلِ...

لستُ أدري لماذا لم أهْرُبْ بعيدًا قبل بداية الحريق، لماذا انتظرتُ حتَّى اكتمال النار في جَسَدِ البيت القديم، هل كنتُ أجْمَعُ اللحظاتِ الهاربَةَ من فَزَعِ المكان، هل كنتُ أجمعُ أمواجَ الماضي للهيب الحَاضر، لماذا وقفتُ شاهِدًا على أفظَعِ أيَّام (صخرة الغُرُوب الأخير)؟

هذا المكانُ قديمٌ، أقدَمُ من الإنسان نَفْسِه، هو الذي دعَا الإنسانَ ليصنَعَ منه وطَنًا ههنا، هذا المكانُ شهِد الجريانَ الأوَّل من النهر، بهذه الصخرة العظيمة القديمة يصطدم الماءُ فيغيِّرُ مساره نَحْوَ الجَنُوب، هذا المكان أقامَ مع دجْلَة حِوارًا شَهِدَه الغُرُوبُ والشَّفَقُ والطيورُ والأشجارُ والإنسانُ، حروبُ الإنسان كلُّها مرَّتْ من هُنَا لكنَّها حفظت حُرمة (صخرة الغروب الأخير) إلا هؤلاء الأسفلين، أفزعوا الزمن القديم، وأحرقوا جسد الحاضر.

تحتشد الوجوه عائدةً من مطر السنين، تقفُ صَفًّا بيني وبين النار، أُطَالع لَوَاعِجَهَا وهي ترى النارَ تلتَهِمُ منزِلَ الذاكرة، أجيالٌ سكنتْ هذا المنزِلَ، وحقبٌ مُوْغلة في القِدَم استقرت على هذه الصخرة.

طفلةُ الحب الأوَّل تقفز بين النارِ والشفق، بين هشيم الحاضر وألوان الماضي المتوهجة تطيرُ من النارِ إلى دجْلَة.

هذا المكانُ شَهِدَ حُبَّ كامِلٍ ومريم، هنا غنَّى فابتسمَ قلبُها لغنائِه، هنا حين كانَ العُشُبُ أخضرَ عاليًا، اختلس كاملٌ كثيرًا من النظرات إلى مريم وهي على تنُّورٍ طينيٍّ تفوحُ منه رائحة الخبز والنار والشوق إلى الهروب.

هذا المكانُ شَهِدَ عناقَ الحمائم، وعتابَ النوارس، هذا المكان أقامَ وِدادًا عجيبا بين العُيُون والماء والشفق.

أيَّتُها الطفلةُ التي عادت على الرغم من مرِّ السنين لتَقِفَ بطفولَتِها الأولى بيني وبين النار إنَّهم يُحْرقون الزمن، لماذا جئتِ من بعيدٍ إلى هُنَا، لتشعلي حريْقًا آخرَ في القلب، النارُ الداعشية المضطرمة تحاول أنْ تُحْرِقَ براءَةَ الطفولة، تُشْعل عَبَثَ السنينِ السالِفَةِ.

حيْنَ ترى الأشياءَ في نزيفها الأخيْرِ تتمنَّى أنْ تكونَ مُحايدَةً بالنسبة لك، تتمنَّى ألا تعرِفَهَا من قبلُ، ألا تكونَ لديك معها ذكرياتٌ راسخةٌ، وحنينٌ دافيء، حتى لا تتألَّم هذا الألم كلَّه في لحظات انهيارها... دجْلَة تُجْفِلُها النار.

حُلُم العودة، حلم البقاء، حلم الهروب من الجحيم، حلم أنْ ترى رقابَهم الذاوية في ختام المشهد، حلمٌ يسير معك حيث اتجهت، فتظلُّ هذه الأحلامُ سببًا لتعلقكَ بالحياة.

عُـرسٌ بلا فـرحٍ

مِثْلَ أكثر قصص الحُب، تبتديء بنبضٍ منفرِدٍ، ثم يُشارِكُهُ قلبٌ آخَرُ مع مرور الأيام، فتكتمل معزوفةُ الحب الأثيرة، ثم بعد ذلك تبتعد الأجساد، فيزداد نبضُ القلوب في البُعد حنينًا ولواعِجَ، فتنتهي القصة بالزواج من طرف آخر، هذه القصة التي تتكرَّرُ ملايين المرات على مَرِّ السنين، لكنَّها قصَّتُه، قصتُه هو وكأنَّ هذه الأحداث لم تقع على أحَدٍ غيره من قبلُ.

نظَرَ إلى أصابعها في كفٍّ ما، فتحسَّسَ كفَّهُ، فأدْرَكَ أنَّ تلك الكفَّ ليست له، طالَعَ خطاها وهي تسير إلى طريق كانَ يتمنى أن يكون طريقَه، تمشِي دون أنْ تُلقي أبصارَها في الأرض استحياءً كعادة كل عروس تُزَفُّ، تنظُرُ بشراسَةٍ إلى الوُجُوه الحاضرة، تعاتِبُهم، تهاجمهم جميعًا، لماذا حضروا فرَحًا لم تكن سيدَتُه راغبةً فيه، لا أصوات للزغايد والرصاص وأغاني العرس في زمنِ القبح، لِيَقفَ شاهدًا على عُرُس مكتومٍ.

بعينين من حزنٍ ويأسٍ نظرتْ إلى دارِه، إلى المكان الذي كان عُمرًا كاملاً يجلبُ حنينَ الروح، ودفء الحياة، كانت

تتمنَّى ألا يكونَ موجودًا في المكان حتَّى لا يزيدَها عذابًا، لكنَّها رأتْه واقِفًا في مكانه القديم، اليدُ التي تقودُها تقيِّدُها بقيدٍ من حديدٍ، تمشي إلى حيثُ لا تريد مثلَ أسيرات الحروب، كُلَّما ازدادَ فرح الناس ازدادا حزنًا وغيظًا ويأسًا، وأدركا أنَّه لا مفرَّ من هذه النهاية.

أوصدُوا باب سيارة العرس، فأُوصِدت آخِرُ فُرْجَةٍ من أمَلٍ بينَهُما، بجنونٍ قاتِلٍ اختطفتها سيارةُ العرس، فتبعها الحاضرون جميعًا، اختفت عن المكان جميعُ الأصوات التي كانت تفرح فرحًا مكتومًا، لم يبقَ إلا إسماعيل في وحشة المكان، يقف على قدمين ترتجفان، مثلَ الخاسرين في أرض المعارك.

إسماعيل الذي لا يستطيْعُ السكوت، ولا يقدر على كتمان غضبه، مجبرًا يظل ساكتًا في ذلك العصر الذي يعتَصِرُ القلب في ذلك الهدوء القاتل، كيف سيدخُلُ محنَةَ النسيان وهو يدري أنَّه سيخسرها؛ لأنها ستظل تحمل معها تاريخًا من الصفاء تسافِرُ به، لأنَّها ستظل آنِسَةَ الخيال، وسيِّدَةَ الذكرى، ودفءَ الأيام القديمة، ستظلُّ امرأةً دافئةً تُقْبل من زوايا الغياب، تأتي بلا موعِدٍ، تحمل معها الأيام العائدة من السفر.

من بعيد أرى خُطاه تضرِبُ الأرض، تعلِنُ رفضَهَا لكل شيء، أسمع صوتَه فادرك أنَّه يلعن شيئًا ما، إسماعيل رجُلٌ

مكشوفٌ، لا يستطيع إخفاء غضبه ورضاه وحُبِّه وكُرهه، وقد سمعتُ بزواج حبيبته التي حدَّثني عن حُبِّهما ساعاتٍ من جلوسنا عند دجْلَة.

– أهلاً إسماعيل.

– أهلاً أيمن.

– ما رأيتُكَ البارحة هنا، انتظرتُكَ عصرًا كاملا ولم تجيءْ، ما الذي شغَلَك؟

على غير عادته، فهو لا يتمهل بالإجابة، يظل متأمِّلاً الماءَ المسافر، أعرف إسماعيل يختنقُ إنْ لم يُفْرِغ ما في صدره من كلمات، يُؤْذيه السكوتُ، ويُوْجعُهُ الكتمان، فأستفزُّهُ أكثَرَ من مرَّةٍ، وكأنَّني لا أعلم سببَ حُزْنه، حتى يعتَصِره الأسى، فيحدِّثني عن زواج حبيبته ميعاد، يتحدَّثُ وأنا ودجْلَة نستمعُ لكلامِه المبتلِّ بالعبرات، لا يحدثني عن زواجِها فقط، وإنما عن حَجْم حُبِّهما، فلا أُقَاطعه وكأنني لم أسمع بهذا الحُبِّ من قبلُ، وكأنَّني أنا والماء لسنا شاهدين على قصةٍ سمعناها مئاتِ المرات في هذا المكانِ نفسِهِ.

كان يعيشُ الحبَّ من بدايته مرةً أُخْرى من خلال حديثه، فيعودُ إلى لحظات الاكتشاف الأُوْلى، وإلى أيَّام الصدِّ والدَّلال، وإلى الهَجْر الجميل، لم أُقَاطِعْه حتى أُحسَّ أن هناك فُرْجةً من الضياء تسلَّلَتْ إلى روحه من بين غيوم الحزن السود التي جاءني بها.

– إسماعيل، مثلما طرقتْ ميعادُ أبوابَ قلبك على غيرِ موعد، لا بُدَّ أن تزورَه أخرى، فالصباح يفتح يديه عن نساء قادراتٍ على ترميم خرائب الأيام، ثق ستستعمرُك أُخْرى، وتقيم في قلبك مملكَةً جديدَةً من الحُبِّ.

– ليس كما تتصوَّرُ، الذاكرةُ هي الإنسان كُلُّه، لا مجدَ للقادمات بعد هذا الاختناق، المجدُ للتي تحدَّتِ الحاضرين كلَّهم، للتي تحدَّتْ كفًا غريبةً تقودها، لتنظرَ إليَّ نظرة تختصر حزن العالم كلَّهُ في يوم فرحها المفترض، نظرة أسقطت كل معالم الفرح، وكل جذور الانتماء، لتعلنَ أنها تنتمي لي وحدي، كيف لي بعد اليوم أن أقول لأخرى: (أُحبُّكِ) ولم أقلها إلا لميعاد سنين طويلة. كيف سيبدو بيتُ جيراننا بعد أنْ نَشَف الضياءُ منه، كيف سأحتمل رؤيَةَ أمِّها العاهرة التي سعت إلى تزويجها، وكيف سأبصر أباها النذل الذي رَضِي بالزواج.

– الحمد لله، أكادُ أطمئنُّ عليك، فأنتَ بخيرٍ طالما عُدتَ إلى شتائمك.

حاولت جاهدًا أن أُخفِّف مرارةَ الأحزان التي يتجرَّعُها، فكنتُ أُخفِّفُها بعذوبة ماء دجْلَة، وكنتُ أسعى للذهاب باختناقه من خلال نسيمها السحري على الرغم من إيماني بحزنه، ويقيني أنَّ هناك ما يستحق كل هذا السُّخْط.

حين كان يتحدث وتسقط كل حين منه دمعةٌ ناطقةٌ

أدركتُ أنَّ مواقف الحُب هي من أعظم مواقف الحياة، وإلا ما كنتُ أتصوَّر إسماعيل سيبكي في يومٍ ما، الحبيبةُ حين ترحَلُ لا ترحل وحدَها، وإنما تَجُرُّ خلفَهَا شموسَ العمر، وصباحاتِ الحياة، تأخُذُ مطَرَ السنين فتظلُّ الأرضُ جرداءَ لا تتكلَّمُ.

كان إسماعيل يتحدث بانفعال عجيب عن ذهاب ميعاد، وأنَّ باب سيارة العرس حينما أُوْصِدَ إنما أَوْصَدَ آخر فُرجة من أمل بينهما، وأنها لم تعد مِلكًا له كما كان يظنها من قبلُ، وأن في وجهها احتَشَد حُزن العالم، وكنت أسافِرُ مع كلماته، لأرى كفَّ ضُحَى الغائبة، أخافُ عليها وهي في الغياب، أخافُ أن يتسلَّلَ إلى غاباتها أحدٌ ما على غفلة من انتظاري، ماذا لو أخذَهَا الآخذون بعيدًا عن مساحات الأمل، ماذا لو وقفتُ وبيني وبينَها أصواتُ الفرح التي تستفزُّ العمر، ماذا لو قيَّدَتْها كفٌّ حجرية، إسماعيل عندَه نعمةُ الهَذَيان، ربما يستطيع من خلال شتائمه أن يَفْتح كُوَّة من الضياء وسط الروح المظلمة.

المجهول الذي يُسَوِّرُ مكان ضحى محاطٌ بالبُشرى المرتقبة، ماذا سأفعل لو أحاط بها اليقين الذي يسوِّرُه اليأس؟

لن تَذْبُلَ أشجارُ حبِّنَا لأنَّها سُقِيتْ بماء دجْلَة...

ستعودين إلى هذا المكان مثْلَ حمامةٍ غائبةٍ تهتدي إلى

مكانِها الأوَّل مَهْما تغيَّرت ملامِحُه، سأحتَضِنُكِ هنا على مرأى من الماء، سأحتَضِنُكِ حتى يَجْفُلَ الشاطئ، هذه العاصفةُ المجنونةُ الهوجاءُ قد تنحني أمامها شجرةُ ظلِّنا القديم، لكنَّها لنْ تستطيعَ اقتلاعها، ضُحى امرأةٌ من ضياءِ الريف فلنْ يستطيعَ ظلامُهم كلُّه أنْ يُخْفي بهاءكِ، امرأةٌ من ندى الصباح فلنْ يسلب صفاءَكِ هجيرُهم المقيتُ.

أنظُرُ إلى خُطى إسماعيل العائدة، فتتداخل أحزانه مع أفراح الماء، يجرُّ وراءَه عالمًا من الرَّفْض، كم أملاً علَّق على جيد ميعاد، وكم حكايةً يرقبها عند عينيها، كلُّها ذهبت في ذلك العصر القاتم، يختفي وتظلُّ أحزانهُ شاخصةً معي ترفض الرحيل.

أنزل إلى الماء، وحدي مع الماء، أمدُّ يدي إليه، أشعر بالأمل مثلَ من يسرِّحُ على مَهْلٍ شعْرَ حبيبته بأصابعه، بهدوء أحْمِلُ الماء إلى وجهي، أُضَمِّدُ به جراحاتِ الأيَّام الغائرة.

دشداشةُ الطُّفولة

أنْظُرُ إلى امتدادِ المَاء، فتخطفني الذِّكْرى:

مَنْ يُلْبسني تلك الدشداشة العتيقة التي لا أذْكُرُ الآنَ لونَها، أو أنَّها كانت تكتسي بأكْثَرَ من لونٍ، فتغيِّرُ لونَها حسب طقوس المكان الذي أدخله.

مَنْ يُلْبسني إياها لأُدْخِلَه معي إلى ذلك الزمن، أُغْرِيه بالدُّخول من الطريق العتيق بين دجْلَة والحقول.

كنتُ حينَها في الثامنة، وحيدًا أجلِسُ لساعاتٍ أراقبُ الماكنة التي تضخُّ الماءَ من دجْلَة إلى الحقل، والطفلُ لا يُقَيَّد، أهرُبُ من قُيُودي مرةً بغناءٍ متقطِّعٍ، ومرَّةً باللعب، ومرَّةً بالسفر مع نوارسِ دجْلَة وطيورِها.

مِنْ بعيد أرى نساءً في زهْو الشباب يُقبلن كل حين إلى الساقية التي أقِفُ عند منبعها ليشربْنَ الماءَ ويَغْسلنَ وجُوهَهُنَّ، ألوان الثياب تجعل ذلك الصيفَ مساحَةً من السَّلام، وأُخْرى من المجهول، أتْعبهنَّ العملُ في الحقل المجاور، بفضولِ طِفْلٍ يُريدُ أن يَرَى، سكبتُ نفْطًا في الساقية، لعلهنَّ يأتينَ إليَّ، وبالفِعْل قَدِمْنَ إلى الساقية، فوجدْنَ النّفْطَ يُغطِّي الماءَ، لا مَهْرَبَ من العطش والحَرِّ

والعَرَق إلا إليَّ، إلى مَنْبَعِ الماء صافيًا من فم الماكنة، تأمَلْتُ خُطواتِهن، جِئْنَ على استحياءٍ وخوفٍ، لعلهنَّ شعرْنَ أنَّ الذي قام بهذا الفعلِ لم يكن في الثامنةِ من عُمُره، كشفنَ وجوههن، وشربْنَ الماءَ، غسلْنَ وجوهَهُنَّ وأيديَهُنَّ وأرجلَهن وأنا أنظر، صرْتُ بينهن، أكاد ألمسُ أجسادَهُنَّ التي بلَّلَها العَرَقُ.

إحداهنَّ قالت لي:

- إنتَ خلّيت كازْبَالمَي.

قلتُ لها بدون خوف:

- أيْ آني.

لم أكن خائفًا؛ لأنَّ الماءَ مائي، والأرضَ أرضي.

فردَّتْ وهي تبتسم:

- شْلونْ شِيطان.

واغترفتْ شابَّةٌ أخرى غرفةً من الماء لتلقيَه عليَّ، حينَها وقفتُ لاستقبال الماء، لم أهرُبْ من مائها، شعرتُ حينَها أنَّ الماءَ يحمل شيئًا ما.

ما أجمل أن تتصرَّف بطيشٍ دون أن تسعى لتبرير طيشك، فالطفولَةُ بحد ذاتها مكانٌ آمنٌ للأخطاء، وركنٌ تعمد إليه حين تضيقُ بك الأعذارُ.

ثمان سنين وسبعُ شابات، وطفلٌ واحد... وألفُ شوقٍ يأخذني الآنَ إلى تلك الوجوه التي تعبتْ فجاءَتْ إليَّ.

ما الذي دفَعني لهذا الفعل؟ أهي الأشواقُ للنساء تستفزُّ منذُ الثامنة، أم فضولُ طفْلٍ يُريدُ أن يرى وجوهًا بيضًا في زمنٍ أسمَر، أم الذي دفعني إلى ذلك قيودُ الطفل حين يجلس لساعاتٍ وحيدًا فيريد إنسانًا يقترب منه؟

رأيتُ وجوهًا بيضًا ما استطاع صيفُ الريف بكُلِّ جبروته أن ينال منها شيئًا، فكان ذلك همسًا مبكرًا لترويض الصيف، خسرتُ ثلاثة لترات من النفط، ولكنَّني ربحتُ سبعَةَ وجوه، وأكُفًّا تحمل الماء لتُطفئَ عني منذ الطفولة إلى الآن شيئًا من اتِّقادي، شيئًا من لهيب الزمن الذي لا يَرْحم.

هُنَا في غرفتي المظلمة الباردة أرْتَعِشُ مرَّة أخرى...

هنا أستقبل قطراتِ الماء من كفِّ تلك الفتاة الهاربة مع الزمن، فأُدْرك الآنَ شيئًا من أسرار الماء الذي كان يحمِلُ معه دلالَ المرأة، يحمِلُ رضاها عن تلك الفعلة، لأنَّها أدركتْ أنَّ هناك مَنْ يرعى حضورِها في ذلك الريف النائي.

ليتَ الزَّمن توقَّفَ بي عنْدَ تلك الوُجُوه...

وليتَ دشداشتي تلك تظلُّ تخاطبها شموس الصيف، ويكتُبُ العَرَقُ والترابُ حكايَةَ الطُّفولة فوقَها... أكره كلَّ ما يخفي آثار تلك الدشداشة العتيقة...

أكادُ أختنق.

الأنهارُ تُغْري الناس باللجوء إليها، تدعوهم للسكن قربَها، للاستقرار جِوارَها، النهرُ يُوْدِع بعضًا من صفاته في جيرانِه، يزدحِمُ الناسُ حوله، فتكون ذاكرتُه معينًا لا ينضب عبر الزمن.

بريدُ دجلَة

ورقةٌ بيضاءُ يحملها الماء الأزرق، تتهادى على مهل، وكأنَّها رسالةٌ جاءَتني من بعيدٍ بيد الماء، بلا عناء ألتقِطُها، أحمِلُها في راحتي بهدوء خوفًا عليها من التلف، أُطَالِعُها بلهفةٍ مثلَ من يتلقَّى رسائلَ الحب أو الحرب:

بِعْتَ رمادَ أمواتكْ
كأنَّ حِرابَ إسرائيلَ لم تُجْهِضْ شقيقاتِكْ
ولم تُهْدَمْ منازلُنا
ولم تُحْرَقْ مصاحفُنا
ولا راياتُها ارتفعتْ
على أشلاءِ راياتِكْ

رقم الصفحة (٦٧) وبَقايا من خَتْم المكتبة المركزية في جامعة الموصل.

النارُ قد التهمتْ شيئًا من الصفحة، وتراكَمَ الدخان على كلماتها، لكنَّها قاومت النارَ والدُّخَانَ حتى جاءَتْ إليَّ، هذه الصفحةُ نفسها، هي عينُها قرأتُها من قبلُ في جامعة الموصل، أيَّ مقاومة تمتلك، وأيَّ لغة من التحدي ما زالت تحتفظ بها، لتجيءَ إليَّ أنا بالذات على الرَّغْم من المسافات

الطويلة، على الرَّغْم من الأكُف الحاقدة التي تسعى إلى تغييب الجمال والحب والشعر والحياة، هذه الصفحة السابعة والستون لم تجيءْ إليَّ وحدَها، وإنما حملتْ إلي زمانًا كاملاً.

لقد أحرقوا المكتباتِ قُرْبَ النهر، أحرَقُوا المكتبة المركزية لجامعة الموصل، فاحترقَ الماءُ غَيْظًا وغضَبًا من هذه الجريمة السوداء، وتطايَرَ الوَرَقُ الحزين على صفحاته، فراحَ الموج يقرأُ للموج بقايا العلوم والمعارف والأشعار والأفكار.

الأسماكُ ليس لها ذاكرةٌ لتحفظ الأشعار القادمة إليها من ألسِنَةِ اللهب، لا روعَةَ في تلك النار القائمة على شاطئ دجْلَة لأنَّ وَقُودَها كُتُبٌ أُلِّفَتْ للخلود، إنَّها نارٌ داعشيةٌ، وكأنَّها النارُ التي التهمت صخرةَ الغروب الأخير، والبيتَ الكائن فيها.

إنهم يَخافون من الحُب والسلام والحُرية والحياة، لذلك أحرقوا أوَّل ما أحرقوا دواوين الشعراء، عاش طلبةُ العلم لسنوات معها كتابًا كتابًا، كُلَّما امتلأ رَفٌّ جديدٌ من رفوف المكتبة استقرَّ في القلوب فرحٌ جديدٌ، إنهم لا يتركون شيئًا جميلاً إلا اجتاحوه، دخلوا عليها، حملوا الكُتُبَ الكريمة بوحشيةٍ ليس لها نظيرٌ، كَمَنْ يحمِلُ جثُثَ أعدائه، أو كمن يحمِلُ نفاياتٍ سامَّةٍ يريدُ أنْ يتخلَّصَ منها على عجل.

في لحظةٍ واحدةٍ تنهارُ أحلامٌ عاليةٌ، تختنق الأفكار دفعةً واحدةً، تكتظُّ الأسماء وسط النار الداعشية:

الجاحظ والسياب وابن قتيبة وابن عقيل والتوحيدي والفراهيدي ونزار، وغيرُهم كثير، كلُّهم يختنقون في لحظة واحدة، الكتب أوراقٌ تطيْرُ، وأخرى تكون رمادًا.

أيها الأرذلون: لا تقتلوا المتنبي مرَّةً أخرى.

أيها الأسفلون: إنَّ السياب نحيلٌ لا يقوى على أنْ يظَلَّ في هذا الخراب.

أيها السُّفَهاء: إن نزارا مُدلَّلٌ لا يصمد أمام هذه اللوعة الكبرى.

يا وحوش العصر: إنَّ الفراهيدي استسلم لأنغامِ الشعر المُتدفِّقة ارحموه من صوتِ حَسيسِ النَّار اللاهبة.

أيُّها الجبناء: لا تجعلوا النارَ مَحْبَسًا ثالثًا للمعري.

أيُّها المغول الجُدُدُ: لماذا أحَلْتم دجْلَة رمادًا أسود، بعد أن أحالها أشباهكم زرقاء من الحبر، لماذا أدخلتم صورة اللهبِ إلى زُرْقة الماء؟ هذا اللهبُ وَقودُه كُتُبُ الأقدمين والمعاصرين فلا يفرَحُ به من كان في صدره قطرةٌ من حياةٍ.

أُوْدِّع الورَقَةَ المُحْترقة الأطراف لدى الماء بهدوء، أترُكها لسفرِها، ويظلُّ نزار ساخِطًا وحده على البُيوت المُهدَّمة

والمصاحف المحترقة، ولا أحد يرى دمعاتِه سوى أسماكٍ بلا ذاكرة.

أين بوَّابةُ الدخول إلى الماضي؟ كيفَ لي أنْ أُوْصِدَ أبوابَ هذا الحاضر الذي تَضْطرِمُ فيه جحيمٌ لا تَهْدأ؟

أخْجَلُ من الماء وأنَا أرى رمادَ الكُتُبِ، لا أستطيعُ أن أرْسُمَ صورَةَ اليأس، ولا أقدر أن أُطوِّقَ حُدودَ الحكاية، أرى الأشياء من خَلْف نوافذ الشكِّ والريبة والخوف من الحرائق التي أنا على يقين بأنها ستأتي.

أحتاج إلى ضُحَى في هذا الغروب، أحتاج لنَسْمةٍ قادمَةٍ من خلف ابتسامتها التي لا تُجيدُها أنثى سواها، ضُحَى تبتسمُ بمقدارٍ، وتَحْزنُ بمقدارٍ، وتغضَبُ بمقدارٍ، وتُحبُّ بوحشيَّةٍ مَثْلَ أمواج البحار حين تعودُ إلى سواحلها، أيَّتُها المرأة التي عبرت حدودَ المألوف، فوقَفَتْ معي كثيرًا على شاطئ أجرَد، أمشي وحدي على شاطئها والغروب فأشتاق أشتاق أشتاق إليها حتى ألْمَسَ رِضَا أصابعها الناعمة، فتبتلُّ كفي بعَرَق كَفِّها البعيدة.

أيُّها الرَّاحلون: متى تعُودون؟

أنْظُرُ إلى القُرَى التي لا تفصِلُ بينها سوى الدُّروب العتيقة، كم تحتاجُ لترمِّمَ خرائِبَها، ما يكفيها من نسيمٍ قادمٍ من الحُقُول لتُذْهبَ عنها رائِحَة الدماء، المقابِرُ تتَّسع بشكلٍ مُذْهل، والجثثُ التي لم تَجِدْ قبرًا يؤويها ما زالت تسافِرُ مع الدموع بحثًا عن مُستقَرٍّ آمنٍ، هذه القرى شَهِدَتْ تاريخًا من السَّلام، وأعوامًا من الغِنَاء والضحك، مسَّها الجوعُ والحرمانُ والبؤسُ، وكان عنادُ الفلاحين جُزْءًا من هُويَّتِها، لكنَّها لم تحزن مثل حزنها اليوم، كانت صباحاتها تغسل عنها عناء الماضي كلَّه.

ماذا سأفعلُ لو لم يكن هذا الطريق يؤدي إلى دجْلَة، هذه الدُّروبُ التي تنساب من كل مكان لتلتقي جميعًا عندها فتعلن حبَّها المُطْلق لهذا النهر، وتُؤكِّد انتماءَ القُرَى لها، الدروبُ هي الشرايينُ التي تُوْصل أحلامَ الماء إلى القُرَى، كل خطوة تسعى إلى الماء يغريها اشتهاءٌ جديدٌ، وتدعوها إليه أحلام لم تُخْلَقْ بعدُ.

أيَّامٌ من السفر البعيد، وأيامٌ من الربيع القديم، وأيامٌ من انتظار الغائبين، وأيامٌ من البحث عن وجه امرأةٍ يكون

وطنًا من الحب، كلُّ شيء تلاشى حين صارت هوية الأيام للرصاص القادم من حيث ندري ولا ندري، يبتعِدُ الغائبون خَلْفَ جدار الرعب، الرصاص يُمزِّقُ جسَدَ المسافات، الرصاصُ يطفيء العيون التي تحاور حقول الصيف، الرصاص يخترِقُ الصدور التي اختزنت رائِحَةَ الليمون والبرتقال خوفًا من زمنٍ قاحلٍ، من يا تُرَى سَرَق كلَّ معالم الزمانِ والمكان فصِرْنا نتخبَّطُ في هذا الضَّلال الكبير؟ ريحُ المَنَافي تجتاحُ أشجار الروح، وطريقُ الحياة الذي نسَفوا قناطِرَه صار جُثَّة مقطَّعَةَ الأوصال، أُحَاول أنْ أستلَّ الأحِبَّة من مَخَالب الرُّعب: خالد، سَعد، ميعاد، إسماعيل، ضُحَى.. فيأبى الرُّعْب إلا أنْ يتمَّ مسيرته.

الانتصارُ الحقيقيُّ هو حين نجد إجاباتٍ لأسئلة الأطفال، حين نستطيعُ أن نمنَعَ الدموع من السفر على وجوههم الطاهرة، حين نستطيعُ أن نُعيدَ تنظيم نبضِ قلوبهم، فالرُّعْب له نبضٌ خاصٌّ به، والهروبُ خوفًا من الرصاص وصواريخ الطائرات له نبضٌ خاصٌ به، والانتظار له نبضٌ خاص به، والوقوف وجَلاً عند أبواب الغُرُوب له نبضٌ خاص به، واللعب، والضحك، والسكون، واللجوء إلى أحضان الأمهات، وملامسة دفء صدور الآباء، كل ذلك له نبضٌ يَليقُ بهِ.

ليتَ الزمن أمْسَكَ بماء دجْلَة ورَحَل مُسْرعًا، الزمنُ مشدودٌ بأرضٍ جرداء، وليلٍ مُظلمٍ ساكت.

أيُّها الأحبة الغائبون لم نعد قادرين على أن نقولَ لكم: متى تعودون؟ فإنَّنا لم نعد نملك من ربيع الزمان والمكان شِبرًا واحدا، ولا من مَطَر الشتاء قطرةً واحدةً، لم نعد قادرين على عتاب الرَّاحلين عن الديار.

ما أصعبَ أن تتلاشى أحلام الإنسان فلا يظلُّ لديه إلا حلمٌ واحدٌ هو البقاء على قيد حياةٍ، مهما كانت طبيعَتُها، ومهما كان حجمُ الشتائم التي تتلقَّاك وأنت تعبُرُ الدروب، ومهما كان مقدارُ حقد الوجوه التي تترصَّد رحلَتَك.

أيتها الليالي التي انطفأت أنوارُها كيف سنكتُبُ قصائِدَ الضياء؟

أيُّها الصباحُ الذي الْتاعَتْ طيورُه من الذي سيتكفَّلُ بمحو أحزان الليل؟

من الجنوب، أو من الشمال، أو من الشرق، أو من الغرب، من الأعلى، رصاصٌ ينبعِثُ من كلِّ مكان، أو من تحت خُطَاك تنبعثُ عُبْوةٌ تنسِفُ العُمْرَ قبْلَ الجَسَد، الرصاصُ الكثيف يُقيمُ حاجِزًا بينَنَا وبين حُبِّ الأرض، الرصاصُ يحمل معَهُ خُبْثَ الأنامل التي أرْسَلتْه، كم من الزمن ستجتاحنا مخالب الرعب، وكم من السنين ستجتاحنا ريحُ المنافي؟

لِمَاذا أيُّها القادمون من جُحُور الليل، العائدون إليها كُلَّما عاد السلام إلى الأرض لتقيموا خرابًا جديدًا، ماذا تريدون وقد صارتْ الدموعُ هويةَ وجوه الأمهات؟ المعادلة بينَنَا

وبينَكم واضحةُ المعالم، جَليَّة النهاية: إما أنْ نقتُلَكم، وإمَّا أنْ تقتُلونا، لا سبيلَ إلى السلام وأنت تجاور الذئاب.

أمشي على شاطئ الغروب بخُطَى مثقلة، لا تريْدُ مغادرَةَ المكان، تحْتشِدُ في انكسار الماء كلُّ الوجوه التي أحبها، تحضُرُ إلى هذا الصفاء كل الوجوه التي غادرته هربًا من الموت، ضُحَى وجهٌ يبتسمُ لي من زُرْقة الماء، وجْهٌ يسبَحُ ضدَّ التيَّار حتى لا يُغادرني، أيُّها الماء كيف استطعتَ أن تحتفظ بهذا الصفاء كلِّه، بهذا النقاءِ كلِّه في زمن الجريمة المُعْلنة، في زمنٍ ترى وجوه القاتلين فيه في وضَح النهار ولا تستطيعُ أن تلعَنَهم بصوتٍ عال.

في الغروب يزدادُ الشَّجن، ويكونُ للأسى توحُّشٌ مُذْهل، في الغروب تُشْرق الروحُ إشراقَتَها الكُبْرى، فينكشف الستارُ عن الأشياء جميعًا، فتراها على حقيقتها، أوَدِّع شاطئ الغروب لشاطئ الغروب، فلا يستحقُّه أحدٌ غيرهُ، لأمشِيَ مع الناس الباقين قبْلَ أنْ يُحْكِمَ الظلامُ قَبْضَتَه، تَثِبُ الروحُ لتَرَى بنفسِهَا وُجُوهَ الناس، وجوهٌ مسَّها الضيم، وجوهٌ يكشِفُ حُزْن الضمائر تفاصيلَها، كُلَّما ازداد الظلام أشرقت الروح، فتجلَّتِ الأشياءُ جميعًا.

إنهم لا يشبهون الإنسان، فلا مأوى لهم، مِثْلَ الكلاب السائبة يجوبون الطُّرُقات، يُغْريهم الليلُ بمزيْدٍ من النَّشَاط لأنَّهم أدمنوا على الجريمة فيه على الرَّغْم من قدرتهم عليها

في وضَح النهار، لا أقْبَحَ من منهم إلا الذين يتسلَّلون إليهم لِواذًا، إلا الذين تتلذَّذُ أسماعُهُم بلكماتِهم ورصاصهم، أريدُ أن أصرُخَ بوجُوهِ القتلة وأنصاف وأرباع القتلة، لكنَّ نداءً خالدًا يَدْفن الكلمات في جوف الروح: (عَلَى هذه الأرض ما يَستحِقُّ الحياة).

أنصافُ القتلة سيَتَخلَّون عن نصفهم المضمخ بالدم عِنْدَ أوَّل شروق لِعَلَمِ الوطن، سيتحدَّثون عن الوطن وعن حُبِّ الأرْض مرَّةً أُخْرَى، الذي يُؤْمن بالوَطَن لا بُدَّ أن يَكْفُرَ بهم، والذي في صدره قطرةٌ من حياة وسلام وحُب وأمن لا يركَنُ إليهم.

أنصافُ القتلة يُلْقون على طريقنا غاشِيَةً من اليأس، إنهم ستُحرقهم نارُ الحرب التي أوْقدوها، لكنَّ هؤلاء الذين يغطون وجوههم بابتسامات مُنكَرَةٍ سيخلعون زمَنَهم الذي آثروه ذات يوم، ويعودون إلى أرضنا، وفيهم أوساخٌ من الماضي.

انتظريني خَلْف بوابة الدمع...

دجْلَة بيني وبينها ليلهم، فمن الذي يُنْقذني من اختناقي، من ليل مُتَكرِّر لا جديْدَ فيه، من سماءٍ بيني وبينها سقفٌ مُظْلم...

تعالَي فَمَراكب الروح ما زالتْ جاهزةً للسَّفَر...

أيتها البعيدَةُ مِثْلَ نجمةٍ تُوْمضُ من بعيد ثم تختفي في

دروب السماء، الحبيبةُ وحدَها قادرةٌ على أنْ تمنَحَ الرُّوْحَ آفاقًا من الجنون الجميل.

خلْفَ بوَّابة الدمع انتظريني.

غُرْفتي المظلمة هذه تُغْريني بمزيدٍ من الحبِّ، تجعلُني أشتاق لكلِّ شبر من أرضنا القديمة.

انتظريني قليلاً فالشروق يسودُ الأماكن على الرغم من كل أسوارِ المنافي، أكادُ ألمَحُ عينيك في هذا الليل وهُمَا يتصفَّحَان دروب السماء، وهما يقرآن السماء نجمةً نجمةً، ستأتين من بوَّابة الشروق امرأة ناعِمَةَ الكفَّين تلمَسُني بحنانِها القديم ونمضي إلى أشجارِنا الأولى، سينبعثُ الغَرَبُ من جديدٍ شجرًا يُظَلِّلُ الروح، شجرًا يقف بيننا وبين صحراء الخوف، وعيون الرُّقَباء، وهواجِر الوجَل.

تخافين من الرصاص وهو هوية هذه الأيام الخارجةِ عن زمن الصفاء، لا تحبين الموت لأن الحياة هي التي جمعَتْ خُطَانا على غروب دجْلَة.

انتظريني عند أيِّ بابٍ من أبواب الحياة، عند أيِّ مركَبٍ مُعَدٍّ للسَّفَر إلى أيِّ مكانٍ، بعيدًا عن خرائب هذه الأيام سنقيْمُ مدينة الحب، من أي كهف من كهوف الزمن خرجتْ هذه الأيام، وكيف تسللت إلى آخر لهفة في الروح.

وجهكِ يقفز من الذاكرة ليُضيءَ غرفتي المظلمة الساكتة، لقد حمَّلتنا هذه الحربُ أكْثَرَ ممَّا نحتَمِلُ، فلم أعدْ قادرًا على

إهداء آخر قصيدة كتبتُها لكِ، بيننا أرضٌ توصِدُ أبوابَها أمام القصائد، بيننا وجوهٌ لا تقيم حُرمةً للشِّعر الأبيض، ولا للشَّعر الأسْود، ضُحى وأنتِ أوَّلُ من أخبرني أن الشواطئ لغةُ العُشَّاق، وأنَّ النهر سَفَرٌ من الأحلام المَجيدة، هل كان النهر جميلاً بذاته، أم الذكريات ما زالت ترشُّ على مائِهِ قطراتِ الضِّياء القديم؟ كيف سيكون النهر لو لم تمسَّ وجهي كف امرأةٍ مبللة بالماء؟

وتغيبين في الغروب الحزين

تكرارُ الأيام والليالي يجعلُنا نتخبَّط بمياهِ الزمن الآسنة، نبحثُ عن سبيل للهروب مِثلَ السجناء الذين ليس لهم سوى طريق الأحلام والرؤى ليهربوا به عن قيودِهم، ألجأُ إلى الذكرى، أتسلَّل من جديدٍ إلى قاربي القديم، إلى شجرتي الصُّغرى، إلى لقائي الأوَّل بضُحى حين كان وجهُها مسكونًا بالحب والخوف، الذكريات كلُّها تزدحم بغرفتي المظلمة، التي تكتظُّ بمشاهد الماضي، والغياب تلتقي عنده خُطى الأحبة كلُّها، هذه الغرفة المظلمة أُعِدَّت لاحتراقي، بها أحترقُ وحدي في ليالي الحزن والغُربة والرعب، فألجأ إلى ماء دجْلَة ليتسرَّب إلى الروح، يُغْرقها بأحلامه، أقفُ عند بوابة الغياب وحيدًا، لا شيء عندي إلا البكاء خَلْف خطى الراحلين...

تغيبُ... تغيب... الشمس والمقبرة سكونٌ مهولٌ ودموعٌ صامتة، المقبرة التي تجاورُ دجْلَة تفتح سلامها للقادمين، والترابُ نديٌّ بمائها في ذلك الغروب الحزين...

تغيب... تغيب... تغيب... والترابُ يجعل المسافة بيني وبينها تنتمي إلى عالم الغيب، حين وقفتُ على شَفَا

ذلك القبر كانت ضحكتُها معي، ترفض حتى وهي في الغياب أن تتركني بلا ابتسامتها، والآن بعد سنين من موتها أغمض عينيَّ فلا أرى وجهها إلا باسمًا، فأؤمن أن الذين يفرحون كثيرًا يموتون سريعًا؛ لأن الفرح يقتلُ الإنسان قبل أن يقتله الحزن، كنت أجبَنُ من أنْ أكتب قصيدة رثاء لها، سكون المقبرة في ذلك المغرب الرهيب يمتد إلى أقصى العُمر، حينَها أمسكتُ بقبضةٍ من تراب قبرها، كان التراب باردًا على الرغم من حرارة الصيف، فماءُ دجْلَة يتسلل باردًا إلى قبور الأحبَّة، ذلك الترابُ قد يُغطِّي عينيها ووجهها وشعرَها، لكنَّهُ لا يستطيع أن يغطي ابتسامتها:

– هلا يعيني... هلا يا أيمن.

بكيتُ كثيرًا في ذلك الغروب الحزين، وأبكي الآن هنا في غُرفتي المظلمة، فأدْرِكُ أن الأحزانَ الكبيرةَ تظلُّ جديدةً مهما طال عليها الزمن، وأنها تَثِبُ كُلَّما زارَنَا حُزْنٌ آخَرُ يُشْبهها...

وتغيبين تغيبين، لتتسع الذاكرة، وتضيق بي اللغة، ليكون الظلام رفيقي الوحيد في طريق العودة من رحلة وداعك.

قبل يومين مررْتُ على دارِها، فكُلُّ شجرة تبكي، وكلُّ جذع يشعر بالشوق، سفرٌ حزين يأخذني إلى الماضي، تحتضنني:

– هلا يعيني... هلا يا أيمن.

يمرُّ وجهُكِ الآن إلى ليلي الحزين، إلى سكوني المُوْحش، يمرُّ باسمًا كما كان، فأُدْرك أن النسيان لا يستطيع اجتياح موسمٍ من مواسم الفرح والحُب، النسيان يستطيع أن يجتاح اللحظات التي أُعِدتْ أساسًا للنسيان، أما اللحظاتُ التي أعدَدْناها للبقاء فإنها تظل باقية، تظل كائنة على مشارف الفرح والدموع.

لا ذنب للزمان، ولا وزْرَ للمكان، نحن الذين نُلْقِي أوزارَنا ولا نبرَحُ المكان، نظلُّ نتخبط في تلك الأوزار، لقد جعلْنَا هذه القُرى الخضراء محطاتٍ لاستقبال صُرَاخنا، ولاختزان فجائعنا، صارت مأوى لأجساد المقتولين ورصاص القاتلين، نحنُ القادمون إلى ابتسامات الزمن بوجوه مُكفهرَّةٍ، نحن العائدون إلى هُدُوء الأماكن بضجيجٍ لا يعي حُرْمة الأرض، نحن الذين أنْتَجْنا القتلة؛ لأننا سقينا جنونَهم بالصمت والخوف.

حُبٌّ عندَ بوَّابة الشَّمس

كنا أنا وإسماعيل على مشارف العشرين، والعشرون جنونٌ لا يُقيَّد، يستطيع الخيال بلحظةٍ واحدةٍ أن يضمَّ الصحاري والسواحل والنساء الحاضرات والغائبات، يستطيع الخيالُ بوثبَةٍ واحدة رسْمَ امرأة بحَجْم اشتهاء فتىً في العِشْرين.

الخيالُ في العشرين يستطيعُ العُبُور إلى حيثُ يشتهي، كان إسماعيل يمتلِكُ شهيَّةً كبيرة للحب، كان له قلبٌ قادر على احتواء نساء ذلك المكان جميعًا، لكن بوصلة قلبِه لها اتجاهٌ واحد تبحث عنه.

قلعة آشور في الشرقاط، مكان للفرح، مكان للحب، مكان يفتح شذاه ورؤاه للقادمين إلى رؤاه وشذاه، من بعيد يومض ثوبُ امرأةٍ ما، وبيني وبين التراب نداءاتٌ يفهمها وأفهمها، أنا ابن هذه الأرض، أنا أصلُ نشيجها، أنا بعضُ نشيدها، قلعة آشور ذاكرة المدينة، ودفترها الخالد الذي يُوْصلها إلى أعماق الزمن، في ارتفاعها العالي نبصر الأمم الزائلة، نبصرها عائدةً بمراكب من ربيع الحياة.

يأتيني إسماعيل راكضا كأنه عثر على كنزٍ فريد:

– أيمن أيمن أيمن أيـ...

– ما بك؟ هل وجدتَ سُلالة من الآشوريين باقيةً مع الزمن، أم عثرتَ على كنزٍ عظيمٍ؟

– لا لا إنها هي، ميعاد، والله إنَّها هنا.

أنظرُ إلى دهشتِه ببرودٍ:

– فعلا إنك مجنون، أليستْ هي جارَتَك، وما زلت تترصدُ خطواتِها جميعًا، ولا تَسْلَمُ من مراقبتك حتى وهي في مطبخ دارها!

– لكنها هنا، هنا في هذا المكان، في هذا الربيع، في قلعة آشور.

أنظر إلى إسماعيل واللهفة تسكنه، قلعة آشور العالية يزدحم بها الناس، لا مهرب من أعينهم، يظل يشير بيده مثل الذين يودِّعون السفن الراحلة، وكُلَّما حاول الاقتراب منها وجد بينهما سُورًا من أعين الناس، إسماعيل لا يعرف الاستسلام، ولا يدري كيف يركن إلى اليأس.

يعود إليَّ بعد ساعتين من غيابه، من بحثه عن فُرجة في الأسوار:

– اقتربتُ منها لمترين، همستُ لها: أحبَّكِ، نظرتُ إليها، شعرتُ بالرضا، استسلمتْ هي بكامل عاطفتها ووعيها لي، صدِّقْني قالتْ لي:(أُحِبُّكَ) بالتأكيد قالت لي، لم أستطعْ بالفعل أن أسمع كلمتها، ولكنَّها قالت شيئًا ما،

صدقني سمِعَتْني حين قلتُ لها: (أُحِبُّكِ)، أيمن لا تتصور مدى فرحَتِنَا ونحن نتبادل كلماتِ الحب، ونحن نستلقي على سُفن الغرام، أدري بك تستقبل كلامي ببرود، لأنَّك لم تعش مثل لحظة هذا الحب الحميم من قبل، امرأة أطوقها وتطوقتي بكلمة: (أُحِبُّك).

- أبدًا لم أعشْ مثلها، لستُ وحدي، بل العاشقون السابقون واللاحقون لا يستطيعون الوصول إلى هذا المجد الغرامي الذي حقَّقتَه اليوم!

- تعال إلى المكان الذي كانت فيه حتى أصوِّرَ لكَ المشهدَ بتفاصيله، حتى أحدِّثَك عن كل خطوة لنا فيه، عن عناق النظرات، وتشابك الأشواق، على الرغم من أنَّ أمَّها أحسَّت بوجودي، وصارت تطالع المكان بعينين حذرتين تشبهان عَينَيْ حارس المرمى الذي ينتظر ضربةَ الجزاء!

- إسماعيل، الشمسُ أوشكتْ على الغروب.

- دعنا من الشمس وغيابِها.

فيظلّ يسرد لي الحكاية منذ بدايتها ويعيد لي المشهدَ كثيرًا بلا ملل، وكأنَّ تاريخه كلَّه تكوَّر في هذه اللحظة.

إسماعيل أيها الصادق النقي، المتطرف بحبه وغضبه، أنظرُ إليه وهو يتكلم بكل جسده، ماذا تعني لحظتُه هذه في قاموس المُحبين، ومغامرات العاشقين، ما الذي يميِّزُها عن لحظة طائشة تتكرر ملايين المرات، تنتهي مع مغادرة

غبارِ المكان، يكاد يختنق حين يتحدث عن مغادرتها للمكان، وكأنَّهُ لن يراها مرةً أخرى، لا أتجاهله، ولم أقل له إن تجربتك هذه عاديةٌ مكرورة منسيَّةٌ، تركتُه يذوب في علياء تراب آشور، كل يومٍ تتسلَّلُ نظراتُه إلى ميعاد عشرات المرات، لكنَّها بدت له اليوم شهيةً أكثرَ من قبل، ظهرتْ وهي بكامل استعدادها للحب، عبرتْ حدود ابنة الجيران لتكون امرأةً أسطورية تمشي على علياء آشور، امرأة تتسلَّل من الزمن البعيد، ظهرتْ له مَلِكَةً آشورية محاطةً بالأسوار، ربما فِعْلاً قالت له: (أُحبكَ)... فحين تعطي اعترافًا له بالحب في هذا المكان بالتحديد تكون العصور كلُّها شاهدةً على الحب، وتكون مرافيء الزمن كلُّها مستعدَّةً لاستقبال سفر العاشقين، ينفض الزمن غبارَه كلَّه حين تولَدُ لحظة حُبٍّ جديدة قبل غروب الشمس على آشور، التي تعود من جديد مملكةً صادحةً على شواطئ دجْلَة، لأنَّها كانت عاصمَةً للحُبِّ، وبوَّابةً للشمس، فرجع إليها الحُب من جديد، هذه اللحظة على الرغم من كونها عاديةً لا دهشة فيها لكنَّ لها في قلب إسماعيل، وفي ضمير هذا المكان ما يمدُّ خطى الحب والحياة وضياء الشمس بين أول الزمن وآخره...

عاجل عاجل عاجل....

إنهم يتوجهون لتفجير قلعة آشور وتجريفها ومحوها من الوجود لأنَّها فيما يعتقدون آثارٌ وَثنيَّةٌ....

سيتوجهون إليها صباح يوم ٢٧/ ٥/ ٢٠١٥، والربيع ما زالتْ بقاياه في المكان، يكرهون الحياة والحضارة والتاريخ والإنسان، سيرحلون، لا بد أن يرحلوا؛ لأن الحياة لا ينازِعُها أحدٌ إلا هلك، ولكنَّهم قبل مَهْلِكهم، قبل زوالهم يريدون أن يسلبوا صفاء الأماكن، يريدون أن يعبثوا بنقائها، يريدون أن تكون بداية الزمن بمجيئهم، لا يريدون مَعْلَمًا في الأرض لا ينتمي إليهم، ولا راية ترتفع عليها إلا راياتُهم، يريدون أن تكون الأرض والزمن والفكر والأدب والإنسان جميعًا قِطَعًا من الظلام.

قلبي على قلعة آشور وهي تستقبل مُرغمةً خُطاهم، وهي بلا إرادة تئنُّ تحت جرَّافاتهم.

أقف عاجزًا عن كل شيء حين أحاول قياس المسافة بين الإزميل والمِعْول، بين الأكُفِّ التي شيَّدَتْ هذا الصرحَ القديمَ وجرَّافاتهم ، لأكثرَ من أربعة آلاف سنة صمدت بصماتُ الإنسان هنا، فكيف تجرؤون على محوِها في نهارٍ مظلمٍ.

أحاول الوقوف على مفارق الزمن فأعجز عن ذلك، حين أتصفح الماضي والحاضر، بوابةً للشمس كانت، وعاصمةً لكل الأرض التي تمتد حولها، في لحظة واحدة يُحْيلونها إلى مكان يُعْدمون فيه الأبرياء.

أستسلم لظلام تحيط به جدرانٌ ساكتة، ما ذنبُ الأماكن

إنْ كانت الخُطَى مجرمةً، ليس للمكان حيلةٌ ليهرب عن الأقدام التي لا يُحبُّها، ليرحَلَ عن الوجوه التي يلعنها، دماء الإنسان الدافئة تسقط على قلعة آشور، يا للتراب وهو يستقبل دماءنا، ويالدجْلَة وهي تشهد أكثر جرائم العصر وحشيَّةً وبشاعَةً.

إنهم يدخلون المدينة، يدخلون التاريخ، يدخلون مساءاتنا، يخطُّون برصاصهم بكائيتنا، ماذا سأذكُرُ حين أمرُّ من جانب خفيٍّ من قلعتنا، هل أذكُرُ أزمنَةَ الفرح والصفاء، أم أذكُرُ اختناق المدى وهو يشهد مقتل أحبابنا في هذا المكان، هل يحق لي أن أدفن في مجاهل النسيان لحظة وقف عندها زمن إسماعيل وقد جعلني شاهدًا عليها.

إنهم يُعدمون أبناءَنا على قلعة آشور، ولا نجِدُ لهم قبرًا هناك، ولا نعثر على شيءٍ من بقايا أجسادِهم إلا الدماء، يقتلونَهم بليلٍ موحِشٍ، وطقوسٍ للقتل تُخْرجهم عن دائرة البشر، ثم يلقون أجسادهم في نهر دجْلَة، ليعانق طُهر الماء طُهر الأجساد التي ما زال حُب الحياة ساكنًا فيها.

الأرضُ خرساءُ

أتَّبع ظلال العنب، أمشي إلى آخر نداء لحُزْنِ الطيور، أحتفِظُ برائحَةِ المطر القديم، تأتيني وُجُوه الأحبة صافيةً مثلَ شروق ما بعد المطر، الحياة لا تُعاش إلا لمرَّةٍ واحدة، الدُّروب القديمة ما زالت عصيَّةً على اكتشافِ كُلِّ ما فيها، أُقلِّب صفحات العمر، كانت الشطآن دافئة وناعمة، لم يكن حصاها يُؤْذِي أقدَامنا، بين النَّدى واللظى أضعتُ الوجوه التي صنعتْ أحلام النهار.

أيُّها البعيدون: لا تعودوا فالأرض خرساءُ لم تعد تستطيع أن ترحِّب بالقادمين، ما أقسى أن يكون الهروب إلى الموت هو السبيلَ الوحيدَ للخروج على حياة متكررة لم تعد راغبًا فيها.

الأملُ شعلةٌ ما زالتْ ضحى تحملها وتمضي في الغياب.

أين اختفى سلامُ العاشقين، وفي أي مساءٍ دُفنتْ دموع الغرام، غنَّيتُ ما غنيتُ وعُدْتُ حزينًا بلا فرح ولا غناء، ضحكتُ ضحكتُ وعُدْتُ وجهًا باكيًا في غرفة مظلمة، أيتها الغابة المشرقة المظلمة، تموت شجرة وتحيا أخرى، تسافر طيورٌ كثيرةٌ فتحطُّ قتيلةً في صمت المكان، سفينة

الأيام لها في كل آنٍ موجٌ يضربها، وساحلٌ آمنٌ يفتح ذراعيه لها، أُشْفق على الباقين؛ فحرائقُ الوقت تزداد كل يوم ضراوَةً وضرامًا.

مطرٌ ربيعي، وحقولُ القمح ما زالت تحتاجُ للمطر، لا ذنب للغيم، ولا وزر للآفاق الصافية، الربيع مدَّ الروح والبصر لمن بقيت عنده قدرةٌ على قراءة الأماكن، لمن ظلت لديه روحٌ طريَّةٌ تستطيع أن تميل مع انحناء القمح الأخضر، ربيع الديار يحاول الرحيل سريعًا حين غابت عيونهم وأفئدتهم.

(معبر خالد) (جِسْر بزيبز) (سيطرة العبايجي) (الرزَّازة) (الثرثار) معابرُ موصدةٌ، وأحجار مهولةٌ تسد طريق الهروب، تحُول بيننا وبين مصافحة خيوط الضياء، تتشظى الدروب من تحت أقدامك، فقد أودعوا فيها مكائدهم التي تغتال الإنسان على عجل، فتصل إلى هذه الأمكنة في الرمق الأخير، تقترب منها، فتتأكد أن للأمكنة مخالبَ وأنيابًا لا ترحم، وأن الإنسان حين يغمُرُهُ الضيمُ والذل يتجرَّأُ الناسُ كلُّهم على ضيمِهِ وذُلِّهِ مرَّةً أخرى.

أتُرى أصبحت ذاكرة هذه الأرض مثل ذاكرة المعاقل لا تبالي لأنين البشر، ولا تفزعُ حين تسمع صُراخهم، ولا ترتجف حين تمد الأصابع المتحجرة إلى العيون التي يلجأ إليها السلام.

من أي قاموس قد انحدرت إلينا هذه المفردات: الهجرة،

والمهجرون، والنزوح، والتشرد، العرب أُمة الرحيل القديم، والأطلالُ عندها تلتقي خيوط الحياة، لكنَّ هذا النزوحَ الكبير قطعَ خيوط الوصل، أخَذَنا من الخرائب إلى الخراب، مثلَ عاصفةٍ هوجاءَ بلا موعد مرَّت على القُرى، أو مثل موسم من الأمواج العاتية كانت هذه الحرْبُ، لقد وقفنا في هذا المعترك الأليم، وإذا بالأهل والأحبة تتوزَّعُهم المنافي، وينثُرهم الشتات.

رسائلُ العِنَبِ الظَّامئ

ضُحى من النهار أَمرُّ على ديار الأهل الخاوية، فأجدها وحدها، تشكو جدرانُها لجدرانها ألَمَ الغياب، كلما ازداد ظُلمهم ازداد هروب الناس الذين يتركون الديار بأثاثها وأشجارها وحدائقها وذكرياتها ويرحلون بحثًا عن أُفق عالٍ غير موصد.

أَمرُّ على دار الأهل فيوقفني صمتُها المُرُّ، يحاورني بكاء اشتياقها، تنهمر من الجهات جميعًا أصوات الأهل، وضحكات أطفالنا الغائبين، ويُشْرق وجه أمي شمسًا تعيدُ لي البدايات، أقصُّ خُطى أمي وهي تلجأُ كل ضحى إلى شجرة العِنَب، لا ماءَ لدي لأسقيَ العنب، لأعيد للأشجار بعضًا من ألوان الحياة.

أُمي، أشعُرُ بمرارة كُبرى، أشعر بأسى ليس بمقدوري وصفُه، ما زلتِ تخافين عليَّ من الرصاص والصواريخ التي تنهمر على هذه الأرض، كيف أترك لقلبك هذا الضجر كلَّه، أدري بقلبك لا ينفك يسأل الآفاق عني، أدري بأن كل باب ينفتح يعيدني إليك، أمَّاه والطُّرق كلُّها لا تؤدي إليكِ إلا طريق البكاء.

نكبُر... نكبُر... ولا تكبُر فينا الأماني الأولى:(أريد أمي) فهذه هي الأمنية التي تعلَّمْنَا بها الكلام، من بعيد، من بعيد، من بعيد، تأتيني نداءات قلبك، فأشفق عليه، لا الصباح، ولا القمر، ولا كل الوجوه الباقية التي تجاهد لتمنح أفراحها تستطيع أن تمنحني تمسُّكًا بالحياة مثل وجه أمي.

من تحت ظلال العنب الشاحبة، من تحت ظمئها الحزين، وحدي أنادي: مَنْ يوقف الرصاص حتى لا تجفلَ أمهاتُنا، ولا يغشاهنَّ الخوف مرةً أخرى؟

أعيدوا للحياة يبيونها، وللربيع بساط عشب لا يذبل، أرحموا قلوب أمهاتنا.

يا أيها الذين تتاجرون بأرواح البشر، أعيدوا لأشجار العنب هذه قطراتٍ من الماء لعله يذكر زمن الصفاء فينتفض على الموت.

أُنادي واليأس يُحكم قبضتَه على الجهات جميعًا:

سيهدأ الرصاص بعد حين، سيهدأ بعد أن ينفَدَ، أو بعد أن ينفُذَ إلى صدور الذين لا ترتفع أجسادهم إلا على أجساد الموتى والمعذبين.

مِنْ صمت هذا المكان، من يأسه المُطبْق، من آخر ما يستطيعه البصر، قبل أن يرتد كليلاً حزينًا تأتيني نداءات اشتياقك، فأدرك أنني لم أوف حق دمعتك، أشعر بخيبة كبرى لأنني حمَّلتُها هذا القلق والخوف والانتظار.

سرابٌ يحاول أن يتسلل إلى الذاكرة، فيمنعه يقين الشوق إلى الماضي:

أماه والقمح كثيرٌ كثير، وشمس حزيران لا ترحم الوجوه، لا يحول بيننا وبينها شيء ما، أماه وجهك يُشرق من أعماق الزمن ليطرد كل سراب أو ضباب يحاول أن يتسلل إلى الذاكرة.

وجه أُمي جاء من أعماق الزمن مُتْعبًا من الحصاد وشمسه، مُتعَبًا من ضجيج الأيام، كان القمح كثيرًا والأكفُّ التي تحصده قليلة.

أماه مَنْ أبعدني عنك، من أبعد القمح، من أبعد شمس حزيران؟ ثانيةً عاد حزيران، لا حضنك لآوي إليه، ولا القمح، ولا تِلْكُمُ الشمسُ الغاربةُ، بيني وبين شمس حزيران أغصانٌ ظامئةٌ.

يا وجه أمي: أول مَنْ يزورني حين أفتح عينيَّ لاستقبال الصباح، وآخر من يغادرني وأنا أغفو بعد منازعة طويلة مع الأرق، الآن أدركتُ وأنا في منزل ظاميء أن بيني وبين الوصول إلى ساحل النجاة غاباتٍ من الرعب، وصحارى من الوجل، أدركت أن ساحلي الأول صار أبعدَ من مرمى الحلم، أدركتُ أنني بين جحيمين لا تفتُران: جحيم الغربة، وجحيم آمالٍ لا تكتمل.

أماه وبقايا الربيع ما زالت هنا وهناك، هذا انطفاء الربيع وَيَقَظَةُ الصيف،لم أكن أدري قبل رحيلك عن الدار أن الربيع قادرٌ على احتواء هذا الضيم كله، لم اكن أدري من قبلُ أن أرض الربيع تكون قاحلةً أمام الروح بهذا الشكل المروع، أكاد أصلُ إلى الفجر، نكاد نلتقي من جديد، وبقايا الربيع كائنةٌ هنا وهناك، بقايا أحزان الليل تعبُرُ من هنا وهناك، دموعٌ لم تجف على وسادة الأرق، وأراقٌ مبعثرةٌ حملتْ بعض اشتياقي، عليَّ أن أُخبأها بعيدًا، فالكتابة تهمةٌ تقرِّبُ الرصاص إلى الأجساد النحيلة.

ما أطولَ الليلَ، ولم يسكت نداء الطفل الذي يسكنُنِي، الطفل الذي أعادتني إليه ظلال شاحبة ظامئة، مثل أي مخلوق صغير لا يستطيع أن يصمد طويلاً إلا بأُمه أحتاج لأمي، لأشكو إليها من أتفه الأشياء فتستقبل شكواي، أحتاجُ إلى فرحٍ حقيقي، أرتاب من الأشياء جميعًا، أرتاب من السكون، أرتاب من الغُربة التي يزداد حجمها كل يوم، أرتاب من هذه الأرض التي إذا التقينا بها من جديد فبيننا يقف هؤلاء القَتَلَة بكامل حقدِهم وسلاحِهم.

حين تكون في مكانٍ ما لوحدك، تعيش مِحنة الحُزن لوحدك، يبكي قلبك فتحاور العينان بكاءه، يستمر الحزن طويلاً فلا صوت يقطعه.

يا بعيدون تعالَوا إلى مساحات نائية رسَمَها الخيالُ الذي

لا يهدأ، تعالوا إلى أوطان صنعتْها الأحلام، تعالَوا إلى زمانٍ غير هذا، وإلى مكان قصيٍّ عن هذا المكان.

يضيق الأفق... وكلما رحل عن الديار أحد الأحبة أحسستُ بالنهر يزداد شحوبًا، على الرغم من أنهم يذهبون إلى أرضٍ فيها من الأمن أكثر مما في جوار راياتهم السود، الذين كلما اقتربت نهايتهم ازدادوا سُعارًا، يقتلون كل من يحاول الهروب من الأرض المحاصَرة، يريدون أنْ يظلَّ الناسُ شركاءَهم بالجوع والعطش والخوف، يريدون أن يتَّخذوا من أجساد النساء والأطفال التي أذبلها الجوعُ والخوفُ دروعًا يتَّقون بها من الموت، بيوت الأحبة والأقارب والأصدقاء مهجورةٌ لا أستطيع أن أوغل بتصفح أحزانها.

بيتُ ضُحى

أمشي في دروب القُرى العتيقة، يُسمِّرني في الطريق بيتُ ضحى.

أليستْ هنا حديقتها؟ الم تعبُر إليَّ في مغرب ما ضحكتُها؟ قدَمَاها كانتا تلمسان هذا المكان، خلفها ذهبت روعتُهُ، وتبعها دفء الدار، أنظر إلى دارها وكأنها نهرٌ جفَّت منابعُه، كأنَّ الدار شجرةٌ لم تُبقِ ريح الخريف العاتية ورقةً على أغصانها، فاستسلمت للجفاف، لولا الذكريات الخالدة في هذا المكان لصرختُ في وجهه ومضيتُ لما يحمل من زمن حاضر كئيب، لكنَّه بيتُ ضُحى، وهذه هذه شجرةُ الزيتون التي كانت تظلِّلُها وهي تُهديني حبَّها، وهذه شُرفتها التي كانت تستسلم لهواء القرى، وتعطي سلامها لنداء الشفق البعيد.

أتزود بكثيرٍ من الجرأة لأنظر إلى الدار باشتهائي القديم، لعل ضحى تخرج من بين هذا الصمت، لعلها تضاعف مجددًا من صوت ضحكتها حتى أسمعها، لعلها تطالع الحياة بثوبها الأحمر من جديد، أنظر إلى الدار فلا أجد إلا السكون، يغزوني سلوك المجانين، أتجاوز حدود المألوف،

أدخل إلى الدار المهجورة باحثًا عن ثوبها الأحمر، حتى أسافر به إلى أبعد من رايات الظُلم السُّود، أدخل الدار فأجدها جدرانًا خائفة، لم يُبْقوا على شيء منها، صادروا كل شيء، انتهبوا ثوبَها الأحمر، يااه، ماذا سيقول ذلك الثوب الطاهر حين يقتحمه جسدٌ قبيحٌ من أجساد نسائهم، وحدي بين الجدران الخالية التي تُردِّدُ أنفاسي الوَجِلة، وحدي أمام ركام القهر الذي تجمَّع فيها، أطالع الجدران:

دولةُ الخلافة باقيةٌ وتتمدَّد..

بيت المرتدِّ الزنديق..

البيت مُصادرٌ..

اللهم احفظ خليفة المسلمين..

إذا كان عندكَ رصاصةٌ واحدة فاقتُلِ المرتدَّ واترك الكافر..

الموت للخونة والعملاء...

عشرات الشعارات مقهورةً تحملها الجدران.

تناديني كلماتٌ كُتبتْ بخطٍّ صغير على جدار غرفتها، أقترب منها، بمشقة أقرؤها لصغر حروفها:(أحبكَ وحدَكَ وإلى الأبد)، وأمامها قلبان صغيران لكل منهما جناحان...

تُردد الجدران نداء الروح، وتُعيد لي الدار كلماتي، أدرك على الفور مدى اشتياق الدار للكلام، تعيد لي الدار كلماتي أوضح مما خرجت مني، أعيد إلى الدار بعضًا من دفئها القديم، أعيد إليها همسًا من خطى ضحى الغائبة.

أنظر إلى الحروف الصغيرة بعينين غارقتين بالدمع: (أُحبُّكَ وحدَكَ وإلى الأبَدِ) فتسقط كل الشعارات الكبيرة التي تجاورها، تسقط بَدءا:(دولة الخلافة باقيةٌ وتتمدَّدُ) وتزدحم الشعارات المزيفة الكاذبة الأخرى أمام مهاوي الزوال والنسيان.

وحدي أنادي في الغرف التي تشتاق إلى خطى الإنسان: (أحبك وحدك وإلى الأبد) فتغور الرايات السُّود في جحيم مهولة ستتقد قريبًا، ويظل الحب شعارًا راسخًا في دفاتر الحياة.

أمسك بأصابع ضحى من خلال حروفها الصغيرة، نطيرُ معًا بقلبين صغيرين إلى غروب دجْلَة...

تكاد الدار تمسك بي، لا تريد أن أغادرها، أسكن غرفتها من جديد، أبعث فيها بعض الأمل، أتلمَّس فضاءاتٍ من الاشتياق القديم داخل غرفتها لم يهتدوا إليه لمصادرته، أمسح عن الحب غبار الحرب.

الدروب العتيقة، دروب القرى التي كانت تغزو مسامعي منها أصوات الحياة، فأجدني وحدي سائرًا في الطريق، أشواك يابسة من العام الماضي ما زالت شاخصةً على الرغم من الربيع، الخوف تجربة لا يألفها الإنسان مهما تكررت، أمشي ومعي حروف ضحى، معي ميثاق جديد منها بأنها لن تتخلى عني.

على المِيعَاد إجِيْتَـكْ

من سكون الدروب، من الهدوء المطبق ضحى يوم من أيام نهاية الربيع أسمع أصواتًا غاضبة تصيح: الله اكبر... الله اكبر...

إطلاقٌ عشوائيٌّ للرصاص يخترق المدى، وآخرُ يتجه صوب الأرض.

تخترقني الأصوات، تخترق جدارَ القلب، في الروح يستقر جمْرُها.

أعلم أن فتوحاتهم هي انكسارٌ لنا، أُدرك أن انتصارهم هزيمةٌ لنا ولوجودنا، أحاول أن أبتعد عن مصدر الصوت، حتى أظلَّ مسافرًا مع حروف ضحى، حتى لا أشهَدَ انكسارًا جديدًا، لكن القلب دائمًا يستشرف لحظات الفجيعة الكبرى، أحاول أن أتجاهل أصوات الرصاص في زمن أدمن على الرصاص واللهب الجامح، فتأبى الروح إلا أن تُضخِّمَ إحساس الخوف القادم، سكونٌ خانقٌ في ضحى لا ينبغي للقُرى فيه أن تسكت.

من مُكبِّرات الصوت يسترقُ القلبُ قبل الأذن نداءً مهولاً: (المرتد إسماعيل).....

وحدي أصرخ وسط دروب القرى العتيقة:

– لا لا إسماعيييييل...

مثل مجنون أركض إليه... إليهم... دون أن أدري ما الذي سأفعله إن وصلتُ، أُخرج الدروب من صمتها، أَسمع للقرى ضجيجًا وصخبًا لا يهدآن، أركض والجدران تركض معي.

كُلَّما اقتربت من المكان تثاقلتْ الخُطى، وثقلت الروح بما تنوءُ من أحمال القهر والضيم والوداع المُرِّ، أعرف إسماعيل وأعرفهم لا يلتقيان أبدًا، أعرفه لا يهادن، لا ينتمي بشيء إلى أُمة الخائفين... لستُ أدري كيف عبرتُ أشواك الطريق، أركضُ إلى مصدر الصوت وإسماعيل يجيء إليَّ من زمن الصفاء، أحسستُ أنني كلَّما اقتربتُ ارتحلتْ روح اسماعيل إلى الآفاق.

أصل إلى مصدر الصوت فإذا بهم يُحيطون به وقد انتهوا من قراءة بيان حقدِهم، ومعهم جمهورُهم، تحيط به الرايات السود، عيونٌ تقرأ فيها بهجة الانتصار وهي تنظر إليه مقيَّدًا جاثيًا على رُكبتيه وقد أشبعوه ضربًا.

أحاول الوصول إليه، أصرخ بما أمتلك من لُغةٍ للتحدي، فيمنعونني، يحولون بيني وبينه، أطراف البنادق والأكُف تستبق على ضربي ومنعي من الوصول إليه.

ينظر إسماعيل إليَّ وهو بكامل كبريائه، أُبصرُهُ وأنا ملقىً على التراب، ما أوجعَ النهاياتِ التي يكتُبها رصاصُ

الظالمين، وما أصعب الوداعَ الذي تحول بينَك وبين من تحبُّ وجوهٌ يسدُّ قبحُها ما بين المشرقين، أنظرُ إليه فأُدْرك أن الكبير لا يزول إلا وقد رسخت جذور المَعْنى.

ما أجملَ أن يظل الإنسان ثابتًا في صرخته، لا تُرْعبه أنيابُ الذئاب، ولا تروِّعه مخالب الكلاب حين تستأسد على فريسة مقيدةٍ، قُرْبَ النهر قيَّدوه، وَجَثَتْ رُكبتاه على جرفٍ عالٍ، يطالعني حينًا وينظر إلى النهر حينًا، وكِلانا عاجزٌ عن نصرِه، ينظر إليهم وقد استعدُّوا لإعدامه:

- كلاب.

- زناة.

- سفلة.

- لا إله إلا الله باقيةٌ وتتمدَّدُ حين تكونون تحت الشواظ واللظى.

- الله أكبر، الله أكبر.

- الله أكبر، لا إله إلا الله...

فيخضِّبها دمٌ دافيءٌ يحبُّ الحياة...

أحاول أن أُوقف رحيل الروح عن الجسد الذي غفا على التراب، أحاول أن أصل إليه لعلّي أُوقف نزيف الدم الدافيء فيمنعونني... أراهُ والنهر من خلفه، وشاطئان ودموع تشد الرحيل إلى القُرى...

مثل الوحوش التي لا تتألم يقفون، لا يقتربون منه ليتأكَّدوا من موته؛ فقد أطلقوا عليه رصاصًا يقتل قبيلةً كاملةً.

مثلما قتلوه بوحشية يلقون بجسده من الجرف العالي إلى النهر بوحشية أشنع، لأنهم حكموا عليه أنه يُقتَل ولا كرامة، ولا يُدفَن في مقابر المسلمين، فقد شتم دولة الخلافة، ونال من عِرض الخليفة، وأعراض نساء المجاهدين الحرائر!

يغادرون ونبقى أنا واسماعيل والنهر، بصعوبة أقف على قدمين آذاهما الضرب، فأركض على الشاطئ بظهر أحدبَ مثل خراب حين كان يركض جيئةً وذهابًا يبحث عن عمره المفقود هنا، كنتُ أحاول أن أُخرجه من الماء، لعلَّي أضمُّه ضمَّةَ الوداع الأخير، لعلَّي أدفنه في التراب ليتحداهم حيًّا وميتًا، لكنني أدركتُ بعد محاولة يائسةٍ أن النهر لن يتخلى عنه في الوداع الأخير، فقد تلقَّفه وسافر، مضى به إلى الضياء المبتل بالماء.

إسماعيل صورة الكبرياء التي رسمها عمرٌ من التحدي، آخر من بقي لي على هذه الأرض المحاصَرة، سيحيط بك الماء بعيدًا عن قُبح هذه الأرض، سيحول بينك وبين وحوش يبتلُّ تاريخهم بدماء العالمين.

نهاية الربيع وبداية الصيف، نهر القرى أوسع ما يكون، لعله يستطيع أن يحوي أحلامه، هنا في هذا المكان نفسه

كان يحدثني عن ميعاد، ينفعل وحدَه، ويهدأ وحدَه، لم أكن أُقاطعه، أتركه يغضب كيفما يشاء، ويَرْضى كيفما يشاء، والآن أستسلم لرحيله مع الماء، لسفره بعيدًا عن انتظاري، فأجْلِسُ عند النهر، أضعُ يدي بالماء الممتزج بأحلامه، أكتشف من جديد أنَّ الأنهار للحياة، وأنها تستطيع أن تقيم سدًّا منيعًا بيننا وبين الفناء.

سيغسل الماء عن وجهك تراب الأرض التي لا ترحم، سيمسح الماء عن صدرك دماءً تُفْزِعُ سكانَ الماء أراقها سكانُ الأرض.

أتصفح الماء فلا أرى إلا أمواجًا صغيرة تتقلب، ونقاءً قديمًا يتطاير نحو الآفاق، فأدرك أن النهر لن يرضى أن يُرِيَني إسماعيل جُثَّةً غريقة مزَّقها الرصاص، يظل وجهًا باسمًا، وعاشقًا قادمًا بلهفة إليَّ أنا والنهر، ليُحَدِّثنا عن آخر حكاياته عن ميعاد، ليضخِّم لنا شؤونها الصغيرة، ما الذي كنتُ سأفعله لولا النهر، من سيعزيني بموتك؟، ومن سيقف معي في هذه الحادثة التي هي آخرُ ما كان يدور في الفكر؟، لم أكنْ أجرؤ في يومٍ ما أنْ أُفَكِّرَ بأنك ستموت، فأنت مشروع حُب وحياة، لم اكن أتصوَّر أن رصاص هؤلاء سيخترق جسدك، لأنك تراهم أتفهَ من أن يرعبوك، العاشقون لا يموتون بهذه السهولة.

لا، لم تمُت، ولن تغيب عن القرى، فالنهر سيعيد لك الحياة، سيطوف بك الماء شاهدًا متحديًّا كلَّ راياتِهم التي تسعى إلى غياب الإنسان، سنلتقي من جديد، ليس على هذه الأرض التي يحكمها القاتلون والمنافقون والكاذبون والسارقون والفاسدون والمفسدون.

إسماعيل أعرني لُغتك لأعرف كيف أواجه الذين جَعَلوا الأرضَ غابَةً محترقةً، أعرْني لُغتك لأقول لهم:

أيها السفلةُ، أيها الخائنون، يا أبناء القِحاب، أيها القادمون إلى عروش الملك من جحور الجريمة والخيانة والظلم والتطرُّفِ والعُهْر.

سنلتقي من جديد، كُلَّما طالعتُ خشوع النهر، أو لامستُ حنانَه الدافيء. أعرْني صوتَك لألعنَ هذه الوجوهَ الحجريَّةَ، فإما أن أعيش في مدينة من ضياء يُشرق في الضمير، أو أموت مستريحًا غيرَ مأسوفٍ على أرضٍ يلتهم فيها الظالمون أجساد الناس، مثل وحوش تتسلى بالقتل، ويسرق فيها الذين هم في مأمن من الرصاص رغيفنا، ويزدادون أمنًا كلما ارتوت الأرض بدمائنا، وتعلو عروشُهم كلما ذوت رقابُنَا تحت المشانق.

أطالِع النهر الذي أخذ إسماعيل وسافر، فأُدرك أن الحرب قد أوشكت على النهاية؛ لأن الخساراتِ الكبرى تجيء قبل النهايةِ بقليل، أؤمن أنه لم يبق شيءٌ لتأخذه.

حكايات العاشقين تكاد تختبيء في ليالي النحيب الطويل، تتطاير مثل أوراق الخريف قيمٌ كانت راسخةً على هذه الأرض، وتشمخ على الرغم منا صُوَرٌ لا تنتمي إلى البشرية بشيء:

أيها العالقون في الذاكرة تشبثوا بها جيدًا فعواصف الوقت تحاول اقتلاع كل شيء.

الديار التي بقيتْ خاويةً على أحزانها تستنطق كل من يمر عليها، تستوقف كل خُطى العابرين، تستثير القلوب لتغنِّي أمام صمت الدروب أغنيةً باكيَةً، الديار مثل الأمهات المسنَّات تشعر بوجع الغياب حين يغادرها صوت الأهل.

خوفًا على ما بقي عندي من آمال ذاوية أنازع الروح لأبتعد عن موت إسماعيل، فتأبى الروح إلا أن تقيِّدني عند مشهد الرصاص الكثيف على جسدٍ عصيٍّ على الخوف، أقصُّ أثرَه، وأتبصَّرُ خطاه، وأجسُّ أماكنه التي ظل يرتادها:

- تقبَّل الله عزاءك في إسماعيل.

- بارك الله فيك حاج، أشكرك جدًا.

- لعلك عرفت سبب مقتله.

- لا لم أعرف للآن، فمشهد النهاية سدَّ عليَّ النوافذ كلَّها، وعِظَمُ النتيجة لم يجعلني أفكِّر كثيرًا في الأسباب، فهم يقتلون الناس بسبب أو بلا سبب.

- كنتُ قريبًا منه حين قبضوا عليه، هنا في هذا المكان،

لم أره حزيناً من قبلُ مثل حزنِه ذلك اليوم، لم تكن عيناه تستقران على مكان ما، شعرتُ أنه كان يحاول استرداد ماضٍ بعيدٍ، يقف أمام فناء دارِه حينًا، يطالع المكان برهبة وكأنه لم يرهُ من قبلُ، ابتعد قليلاً ثم عاد، وكأنه نسي شيئًا ما، فجلس أمام الدار وأخذ يغني غناءً شجيًّا:

(على الميعادْ اجِيْتَكْ... اجِيْتَكْ.

اجيت وما لِكيتَكْ... اجِيْتَكْ اجِيْتَكْ).

وأخذ يردِّدها عشرات المرات، كل مرة بلحنٍ مختلف، حتى تماهى في المكان، أحسستُ أنه غاب مع سكون داره ودار جيرانه، لم أكن أجرؤ على مقاطعته، أحسستُ أنه لا يُغنِّي فحسب وإنما يؤدي طقوسًا ما يجب عليه اتمامُها، فلم يشعرْ إلا ومجموعةٌ من الدواعش الراجلين قد أحاطوا به، جَلَبهم الصوتُ الشجيُّ في الأماكن الساكتة.

قال له أحدُهم:

– أيها الفاجر، ألم تعلمْ أنَّ الغناءَ حرامٌ، ولا يليق أن نلوِّثَ مبادئ دولة الخلافة بإعلاننا عن معاصينا.

غير أنه لم يلتفت إليهم، نظر إليهم نظرةَ ازدراءٍ وحاول مغادرتهم، فقد كان الحزن يخنقه، يمنعه عن الكلام.

– لماذا لا ترد، لا بدَّ أنْ تُجْلد لتكون عبرةً لأمثالك المُخَنَّثين الذين بسببهم تأخَّرَ النصرُ، فلولا معاصيكم لاستطعنا فتْحَ العالم كلِّه.

فأخرج أحدهم سوطًا واقترب منه، آمرًا إياه ان يستدير ليجلِدَه عشرين سوطًا... حاولتُ أنْ أتدخل لكنَّهم منعوني من الاقتراب، فأنا أعرفه لا يسكت، ولا يستطيع تجرُّع الذُّل، فحينَ اقتربَ أحدُهم منه ليضرِبَه تناول السوط من يده ولكَمَه على وجهه وأخذ يشتمهم جميعًا، ويسب دولتهم وخليفتهم، فانهالوا عليه ضربًا بوحشية مُفْرِطة حتى استسلم جسدُه ولم يستسلم لسانُه، فقيَّدُوه ومضوا به.

الحزن، رحيل الأهل، سكوت الديار، احتلال الأرض، تأخُّر النصر، كلهم اشتركوا بقتلك يا إسماعيل.

الموت يتسلل إلينا من الأشياء التي نُحبُّها قبل أن يتسلل إلينا من الأشياء التي نكرهها.

أتصفح الدروب بأشواكها اليابسة... لماذا ثار عليَّ خراب تلك الثورة كلَّها، وألقى عليَّ كثيرًا من الحجارة التي تحمل غضَبَه حين قلتُ له: ((خراب ان شاء الله تموت))...

ما أوجع الموت التدريجي، وما أشنع أنْ يموت كلُّ من تحب وترى بعينيك موتهم، تتجرع كأس الضيم والقهر والحزن، تعبُرُ على جسدك كلُّ عربات المأساة، ثم تموت بعد ذلك، حينها تموت وأنت منحنٍ أمام مطارق الفجيعة، تموت وأنت في منتصف الطريق بين الحياة والموت، تموت وأنت كارهٌ لما تبقى لك من أيام فلا تأسَى على نفسك، ولا

يأسى عليك الآخرون، فيكون موتُك شيئًا عاديًّا، ونتيجةً معلومة لا روعة فيها، ولا دهشة في حدوثها.

ما أجمل أن تموتَ وأنت في كامل بهائك، وفي عنفوان ابتسامتك، تستقبل الموت وأنت تمتطي صهوة الأيام، فيكون موتُك بكائيَّةً كبرى تجتاح القرى.

ترى في أي زاوية كانت تجلس ميعاد حين كان يغني ذلك الغناءَ الشجيَّ؟ في القلب، أم في الذاكرة، أم في الضمير، أم في الماضي؟ أم استطاع أنْ يستلَّهَا من غيابها البعيد إلى شرفة دارها من جديد؟ لا بد أنه استطاع أن يقودها من غيابها البعيد إلى أمكنة الحب الأولى، فأوقفها على نافذة الحب المطلة على بيته لتسترق النظر على خوف وحذر كل حين، وجلس يغني لها، لا بد أنها عادت إليه بلهفتها الأولى، وارتجافها القديم حين كان الحب شهيًّا مثل أمطار الربيع الدافئة.

أعيادُ القُرَى

هل كانت عصافيرُ الدُّنيا كلُّها هنا؟ أم العصافير لا تراها إلا طفولة الإنسان، فتغيب حين يكبر، العصافير والرصاص لا يجتمعان في أرض واحدة، لا تذهب بعيدًا، لكنها تختبيء في كهوف الخوف والحذر وترقُّبِ السلام القادم.

أمشي في ضحى الديار، تحت أشجار ذابلة ودروب بلا عصافير، أيها الصمت المُرّ، من هنا كانت العصافير تنشر حنانها على الضفاف، وتلقي أناشيدها لأشجار الضحى، كانت لا تأوي إلى أعشاشها حتى تفرغ كل ما تُكِنُّه صدورُها من غناء، فالأشجار صوتٌ يملأ المدى.

أخاف على الذاكرة من حرائق الحاضر، ماذا لو فقدت هذه القرى ذاكرتها، ماذا لو تسلل رماد الزمن إلى أمواج الماضي؟ فإلى أين سنلجأ حين تسد صرخات الفجيعة المنافذ جميعًا؟

أرتاب من الليل، فلا فرق بين نافذة مشرعة وأخرى لا تؤدِّي إلا إلى فضاء موصد، إلى الماضي نهرب من قسوة الأيام، وإلى وجوه ندية راحلة حين تحتل هذه الوجوه العابسة الكالحة اليابسة ندى الطرقات.

يقولون إنه صباح العيد، وهم يطلقون أناشيدهم، أناشيد القتل والإرهاب من مكبِّرات الصوت، إنهم لا يملكون إلا هذا النوع الوحيد من الفن الهمجي، فيكون صباح العيد مُثقلاً بالأسى.

يخرج الشوقُ إلى الأهل والأحبة من جسد المكان كائنًا مروِّعًا يجثو على صدري، فلا يكاد هذا اليوم ينقضي، صوت أمي هنا، هنا ما زال دافئًا على الرغم من طقوس أفراحهم الجليدية، صباح العيد وأنا والديار في غربة عن الأهل، يصلُنِي نشيج اشتياقهم، تصلني نداءاتُ حبِّهم وأصواتُ ودادهم، وهنا سكونٌ لا يُطاق، وأناشيدُ فجَّة تؤكِّد دموية الأيام.

أشتاق لضجيج القرى، أنظر إلى شوارع بعيدة بعيدة تنساب عليها الألوان جميعها، وجوهٌ طفلةٌ، وأجسادٌ بمختلف المقاييس تجتمع عند المقابر بحجة زيارة الأموات، المقبرة تتسع لأحياء كثيرين يفوقون عدد الأموات، يُخرجون المقبرة من صمتها، أنظر إلى أيامٍ غاربة، ذاكرة أعياد القرى تشكلها المقابر، فمن لم يزر المقبرة لم يذُق طعم العيد.

هل كان أطفال القرى كثيرين إلى هذا الحد الذي يجعلهم يملؤون القرى ضجيجًا، والطرقات عبثا، فتعلم الأرض أن العيد قائم هنا؟

الأطفال مثل العصافير لا يجتمعون والرصاص في مكان واحد، وإن اجتمعوا مرغَمين تهرب منهم الأماني الباقية، فلا يبقى لديهم سوى أمل النجاة من الموت.

وحدي أجالس الأرض الصامتة، لأعلن عن خسارتي الكبرى، هذه الديار كلها كانت مملكتي فسُلبَتْ مني عُنوةً، أقف بين دارٍ محترقة، وأخرى مهجورة، أتصفح دارًا مهدَّمة وأخرى قد يبست أشجارها، أغمض عينيَّ فلا أرى إلا جدارًا مائلاً وغصنًا محترقًا.

لمْ تَنْتَهِ الحِكَايةُ

الحرائق حين تكتمل لا تنتظر إلا انطفاءها، والسيول العارمة حين تجرف كلَّ شيء أمامها لا تترقب إلا ذهاب الماء، كذلك الحروب، لا بد أن يتوقف عصفها بعد رائحة أجساد البشر التي عبرت عليها النارُ، لكن النهايات تكون قاسيَةً؛ لأنَّ الحربَ قد استكملَتْ سعيرَها.

شوقًا لإسماعيل والنهر أعود، أعود إلى وجْهِ ضُحَى الذي ما زال الماء محتفظًا به، وحدها دجْلَة لا تموت، وحدها التي تأبى أن يسيطر عليها القَتَلة، وحده الماء ما زال مسافرًا بعد أن أصبحت الدروب أرضًا طاردةً، أو مكانًا للغياب لا للحضور.

لم يعد للأماكن خارطةٌ، والبيوت التي غادرها أهلها صارت مفتحة الأبواب لمن يسكنها، تضيق أرض الرايات السُّود، ويتسع المدى لرايات الوطن، الجيش يستعيد الأرض التي احتلتها رايات سودٌ لبضع سنين، لكنَّها كانت عُمرا كامَلاً من الضيم.

لا أُريد أن أغادر النهر لأني أقف عليه وأنا مسكونٌ بإحساس النهاية، أخاف ألا ألقاه مجدَّدًا، أخاف أن تفرِّقَ

الحرائق بيننا، أنزل إليه من جديد أصافحه، ألمس دفء كفِّ اسماعيل بأمواجه، إنَّهم يكذِبون ويصدِّقون أكاذيبَهم، أسمع أناشيدَهم التي توهمهم أنهم صامدون ثابتون، وأنا أرى مصارعهم هنا على الطُرقات التي سالت عليها الدماء البريئة، أرى نهايتهم في هذا المكان الذي شَهِدَ رمق إسماعيل.

إنهم مثل الوحوش حين يتحكمون في أرضٍ ما، مثل الوحوش حين يسيطرون على الأماكن، وحين يروِّعون كل من فيها، مثل الوحوش حين يهربون منها إذ يحسون أن الخطر داهمهم من كل مكان، لم يصمدوا إلا لزمن يمكِّنُهم من إعداد خطة للهروب، مثل الأفاعي التي حين يدهمها الخطر تأوي إلى جحورها.

استطاع رصاصُ الوطن أن يصل إلى مكامنهم التي حاوَلُوا أن تكون جُحورا دائِمَةً لهم، لكن أدركهم غضبٌ عراقيٌّ، فما هي إلا عشيَّةٌ وضحاها حتى قُتل من قُتل، وهرب من هرب، فالأرض راياتٌ تقول لظُلمهم الذي مكث هنا زمنًا كئيبًا:

- الأرضُ ليست لكم.

أجمل الأفراح ما يأتيك بعد بُكاءٍ طويل، وأجمل لقاءٍ يكون بعد أن نزفتَ شوقًا مُرًّا.

أركض إلى الأحبة العائدين إلى الديار، أرجع إلى الديار مرةً أخرى، لقد تكلمتْ من جديد، أعودُ إلى النهر فأسمعُ

طيور الضفة تشدو للضفة الأخرى، لا أستطيع أن أقرأ أفراح كل شيء.

في لحظةٍ واحدة تنتفضُ الحياةُ على الموت، ينتفضُ الرجوع إلى الديار على النزوح والهجرة، ينتفضُ الحضور على الغياب، تنتفضُ دماءُ الأبرياء على سكاكين الظالمين ورصاصهم.

في لحظةٍ واحدةٍ تنتصرُ أشجارُ الأمل على معاولِ اليأس، فأؤمن أن للسلام ثورةً حين تجيء تُسكت كلَّ أدواتِ القَتْلِ والتعذيب، دماء الفرح تجري في عروق المكان، وللبيوت أجنحةٌ ترفرف لاستقبال أهلها العائدين.

دونما ماء تعود لشجرة العنب خُضْرتها، تورق من جديد، تَهُبُّ على أوراقها الوليدة رياح البشرى.

تشتبك دموع الأهل، دموع الفرح مع ابتسامات البيوت، وتتعانق أشواق الناس مع أشواق ديارهم، ويظل دجْلَة شاهدًا على شروقٍ جديدٍ لزمن القُّرى السُّمر.

يصرخ النهرُ مرةً أخرى على جُثث الظالمين:

هذه القُرى وُلِدَتْ للحب، للبراءة، للبقاء، وُلِدتْ من نقاء الإنسان فلن تستطيعوا أنْ تسلبوا شيئًا من ذلك.

على مَقْربةٍ من الشاطئ أرى جُثَثهم، يرفض النهر أن يأخذهم بسفره المجيد، يأبى أن يشاركوا إسماعيل وشهداء الوطن بسفرهم الطويل، يخشى أنْ يصل قبحُهم إلى خلود رحلته.

وحدها لا تموتُ

من صوب دجْلَة يعود العائدون، يرجع الراحلون عن الأرض التي كان مُحتَلَّةً، وجوهٌ يسكنها الحرمان، بعد رحلةٍ قاسيةٍ من الهرب يرجعون ليحتَمُوا براية الوطن، ليقفوا تحت سمائه مرَّةً أُخرى، لا يشعرون بالأمان حتى يصلوا إلى دجْلَة؛ لأنَّهم وهم في أحضان الماء يكونون في منأى عن رصاص الذين لاذوا فرارًا خلف النهر، أطفال لا يُخيفُهم الماء، ولا يُرعبهم عبور النهر على قارب قديم، إنهم اطفال المحنة الكبرى، العابرون من صوب دجْلَة، الطالعون إلى فجر الحقيقة بعد أعوامٍ من ظلام الكذب والخديعة، أسرى عائدون إلى الوطن يُقبِّلُون ترابه بشوق، ويطالعون سماءه بحُب.

القوارب العائدة من الشاطئ الآخر تحمل أكثر من وُسعها، لكنها تصرّ إلا أن توصل الناس سالمين إلى مأمنهم.

النساء العائدات عليهنَّ ثياب سودٌ باليةٌ، يجئنَ جميعًا بصورةٍ واحدة؛ لأن مقدار الضيم الذي وقع عليهنَّ كان واحدًا، ونسبة البؤس والحرمان التي رأينها كانت متساوية، يغسلنَ وجوههن بماء دجْلَة فتنطفئ عنهنَّ حرائقُ الأيام الغابرة، يَشْربن من ماء دجْلَة التي ابتعد عنها القتلةُ لتشرق

مدياتُ الحرية داخل الأرواح التي قيَّدَها ظُلم السنين العجاف.

الشمس لا تريد أن تُودِّع القُرى، تريد أن تظل هي والنهر شاهدين على أفراحها، تريد أن تظل تهدي ضياءها للعائدين من ظلام الأرض.

في عصرٍ ينشرح له صدر النهر وهو يرسل العائدين إلى شاطئ السلام أنظر إلى قاربٍ تُغري فيه أشواقُ الوصول تعبَ المجاذيف، أشعر أنه يحمل من الأشواق أكثر ممَّا يحمل من أجساد النساء اللواتي يَرْتدينَ عباءاتٍ سودًا متشابهَةً، كُلَّما أقترب من الشاطئ أحسُّ أن النهر نفسَه يسقي أشواق الروح.

دونما وعي، ودون أن أدري ما الذي يدفعني إلى ذلك، أقترب صوبَ المكان الذي سيرسو عنده القارب، أصل إلى النهر، أغترف بيدي غرفة منه، أشرب قليلاً وألقي قطرات أخرى للمدى الصافي...

- أيمن.

- ضحى.

عائدة إلي مع الماء، في أصيل جديد من أصائل دجْلَة، إنها ضُحى مرةً أُخرى بين الماء وبين الماء، غيمةٌ عائدة على الرغم من جحيم الأيام، إنَّها ضحى، هي نفسُها، صوتُها الذي لا أُنْكره.

هذا المكان مكاني، أُبصِر فيه الأشياء بكامل وضوحها.

لا أصبر حتى يصل القارب إلى الشاطئ، أركضُ إليه، أجرُّها إلى الماء، أحتضنُها على مرأى من الماء والناس، أحتضنها حتى يرتجف جسدُها كلُّه بين يدي، أُقبِّلُها فأذوقُ عذوبتَها وعذوبة الماء دفعةً واحدةً...

جسدٌ يشدُّ الماء وثاقي به.

تلتفتُ الدروب والقوارب والنوارس ورايةُ الوطن إلى جَسَدين ورُوحين اشتبكتا في الماء.

هذا المكان مكانُنا، وهذا الماءُ لنا، وهذه الأرض لنا، وهذا المدى كلُّه لن يشاركنا فيه أحدٌ ممن لا نحب...

دموعنا يأخذها سفر النهر...

أحتضنها بجنون، والماء من أمامي وقُربي رايةُ الوطن.

ماء دجْلَة البارد يزيد من حرارة الأشواق ولهيب العناق...

يلتفت الغروبُ كلُّه إلينا وحدَنا.

لن نخاف مرَّةً أخرى، ولن تصيرَ الأرض إلا أشجارًا من السلام.

هنا على هذه الأرض سينبتُ الغَرَبُ من جديد، سيعود الغَجَرُ، وسيعود دربُ الملَّايات أغنيةً وفتيةً يشاكسون الضحى، لا وقت إلا للبكاء هنا لنلقِيَ آخر آلامنا وآخر حسرة وحرمان.

ما أجمل أن تعودي إليَّ الآن بالتحديد وقد أوشكت أشجار الروح على اليباس.

على مرأى من كل شيء نحملها أنا والماء إلى شاطئ السلام.

امرأةٌ مبتلة بالماء والحبِّ والشوق والحياة وربيع الزمن.

الماء دفعَةً واحدة أعادها إلى سنوات ما قبل الحرمان والشقاء، أغسلُ بيدي وجهَها فيُشْرق يُشْرقُ كأنه صبحٌ كاملٌ، الماء أوْدَعَ في جسدها وروحها رغبةً لا تنتهي للحب وللسفر إلى كل أرض يدعونا إليها الشوق، الماءُ أذهب عنها ألمَ رحلة الجوع والخوف والحرمان والبحث عن النجاة.

أنظر إلى ضحى وحولنا دجْلَة ونسيمُها وضفافها وصوتُها الخالد، دجْلَةُ للسفر، دجْلَة للأحلام، دجْلَة شاهدةٌ على جسدين ارتجفا شوقًا في أعماقه الصافية، دجْلَة للقرى التي لا تمل من الغناء، دجْلَة لأشجار الغرب التي ستنتصر على الشاطئ الأجرد، دجْلَة للحب، دجْلَة لعودة البعيدين والمبعدين، دجْلَة للبُشرى.

وحدها دجْلَة لا تموت.

٢٠١٨/١/٦

الشرقاط

●●●●●

المؤلف في سطور

• سعد جرجيس سعيد.

• أكاديمي وشاعر وروائي عراقي من مواليد محافظة صلاح الدين- قضاء الشرقاط، في ١٩٧٩.

• عضو الإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

• عضو الهيأة الإدارية لاتحاد الأدباء والكتاب في صلاح الدين.

• حاصل على دكتوراه لغة عربية، كلية الآداب جامعة الموصل/٢٠١١.

• اللقب العلمي: أستاذ دكتور.

• عمل رئيس قسم اللغة العربية في كلية التربية الأساسية/ الشرقاط - جامعة تكريت.

• اشترك بالعديد من المهرجانات والمسابقات الشعرية والمؤتمرات في داخل الوطن وخارجه، منها: (مهرجان المربد، ومهرجان الجواهري، ومهرجان المديح النبوي في إسطنبول، والفعاليات الثقافية لمعرض الكتاب في تونس).

• فاز بالعديد من الجوائز الشعرية.

• اشترك في مسابقة أمير الشعراء في أبو ظبي لأكثر من موسم، ووصل إلى مراحل متقدمة فيها.

• المؤلفات:

- الليل في القرآن الكريم، دراسة جمالية، دار صفحات، دمشق/٢٠١٦.

- تجليات الحب والحرب، قراءة في شعر بشرى البستاني، دار أكاديميون، عمان/٢٠١٧.

- قراءة أخرى لدرب الحبيبة، مجموعة شعرية، دار نون- العراق- الموصل/ ٢٠١٨.
- كيف وجدت العراق، مجموعة شعرية، دار الابداع، العراق- تكريت/ ٢٠١٩.
- مجموعة مشتركة تحت عنوان: طفلة الوطن العجوز، دار فضولي كركوك/ ٢٠١١.
- هذا خلق الله، قراءة جمالية في صفحات الكون، دار صفحات، دمشق/ ٢٠٢٣.
- انكسارات آخر الليل، مجموعة شعرية، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب في العراق/ ٢٠٢٣.
- وحدها لا تموت، رواية، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة/ ٢٠٢٤
- له مجموعة من البحوث المنشورة.
- فضلاً عن مجموعة من الكتب المشتركة.

• البريد الإلكتروني: saad_tayb@yahoo.com

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net